

مِلْكِيَتُنَا نِكِيَتُنَا

# قناة السويس

مِلْكِيَتُ دُطْنِيَتِ لِّلشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ

0169519



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية  
Bibliothèque d'Alexandrie



جالينا س . نيكتينا

# قناة السويس

ملكية وطنية للسفينة

ترجمة: ابراهيم عامر

تصميم الغلاف  
الفنانة شرياء العجيزي

تم طبع هذا الكتاب  
في يوم الجمعة ٢٢ مارس ١٩٥٧  
بمطبعة الدار المصرية ت ٣٢٥٧٨  
القاهرة

## مقدمة

« مأساة مصر » . هكذا كان يسمى الشعب المصرى قناة السويس ، فقد جرت إنشاء القناة على الشعب المصرى كثيراً من الآلام والأسى ، اذ مات عشرات الألوف من العمال المصريين أثناء قيامهم بأعمال حفر وإنشاء القناة ، واستنزفت مصروفات الإنشاء موارد الخزانة المصرية ، مما أدى بالحكومة المصرية إلى الاعتماد اعتماداً كبيراً على الاستعماريين .

وعلى الرغم من أن القناة قد حفرت وأنشئت بأيدي مصرية ، فإنها آلت إلى أيدي أجنبية ، وامتلاّت جيوب الأجانب بالأرباح التى كانت حقاً مشروعاً للحكومة المصرية ، وأصبحت القناة سلاحاً للاستعباد الاستعماري موجهاً ضد الأمة المصرية .

وقد كان نضال الشعب المصرى فى سبيل استعادة ملكيته الوطنية طويلاً شاقاً . ويبرز فى تاريخ ذلك النضال يومان من أيام النصر . ففي ١٨ يونيو من كل عام ، يحتفل الشعب المصرى بأسره بعيد قومى هو عيد الاستقلال وإعلان الجمهورية . ففي مثل هذا اليوم من عام ١٩٥٣ ، أعلن النظام الجمهورى فى مصر . وفى عام ١٩٥٦ اتفق هذا اليوم التاريخى مع تحقيق إنهاء الاحتلال البريطانى فى مصر ، إذ خرج آخر جنسدى بريطانى من منطقة القناة فى ذلك اليوم ، ورُفِر العلم المصرى الأخضر على المبنى الأصفر الذى ظل عدة سنوات مقراً للقيادة البرية والبحرية لقوات الاحتلال

البريطانية . وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، رُفِرَ العلم المصرى على مبنى  
شركة قناة السويس بعد أن تم تأميمها .  
وأطلقت المدافع فى الاسكندرية . بعد أن ظلت صامتة منذ سنة ١٨٨٢ ،  
أى منذ بداية الاحتلال البريطانى ، فى عيد التحرير يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ،  
وذلك كرمز لبداية حياة جديدة للأمة المصرية ، وبدأت مصر تسير نحو  
نهضة قومية .

# قناة السويس ممر بحري

## ذو أهمية حيوية

يطلق على قناة السويس اسم «ميزان التجارة الدولية» ، وهذا التقدير البالغ للأهمية الاقتصادية الحيوية للقناة له ما يبرره تبريراً كاملاً ، إذ أن معظم الدول التي تملك سفناً بحرية تستخدم القناة ممرّاً لسفنها ، فهناك سلسلة متصلة دائماً من السفن التي تبحر ليلاً ونهاراً متجهة من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، وتعتبر قناة السويس محطة تمر بها بضائع تندر بملايين الأطنان .

ويبلغ طول قناة السويس ١٧٣ كيلو متراً ، وهي بذلك تمتد من أطول القنوات المفتوحة بدون أهوسة في العالم ، وتمر بالقناة في الأوقات العادية سفن يبلغ غاطسها ١١٠.٣٥ متراً ( أى ٣٥ قدماً ) ، وهذا يعني أن من الممكن أن تمر أكبر السفن الحربية ، التي تصل حمولتها إلى عشرات الألوف من الأطنان ، بالقناة . وقد مرت بالقناة في سنة ١٩٥٥ سفن باغت حمولتها ما يزيد على ٣٠ ألف طن ، من بينها ٢٩ ناقلة بترول تبلغ حمولة كل منها ٣٠ ألف طن ، كما استطاعت ناقلة بترول ضخمة ، هي ناقلة البترول المسماة «ورلد جلورى» وحمولتها ٤٥ ألف طن أن تعبر القناة . وقد زادت إمكانيات عبور السفن في اتجاهين بالقناة على أثر افتتاح القناة الفرعية التي يبلغ طولها ١٣ كيلو متراً في عام ١٩٥١ ، وبلغ متوسط

الوقت اللازم لعبور القناة في سنة ١٩٥٦ إثني عشرة ساعة .  
وقد وضعت الحكومة المصرية برنامجاً لأعمال تحسين القناة بعد أن  
أتمتها ، وقدرت تكاليف تلك الأعمال التي يتم تنفيذها في مدى خمس  
سنوات بمبلغ عشرين مليون جنيه مصرى ، وبدأ العمل فعلاً في تعميق  
وتوسيع القناة .

ويمكن تفسير مدى أهمية القناة كطريق من الطرق البحرية الرئيسية  
للتجارة الدولية ، إذا نظرنا إلى مزاياها كمر مائي بالمقارنة بالممرات البحرية  
القديمة التي تصل أوروبا بآسيا عن الطريق المار حول أفريقيا . ولنضرب  
لذلك مثلاً بالرحلة من أوديسا إلى بومباي ، لنجد أن تلك الرحلة إذا تمت  
عبر القناة بدلاً من أن تتم عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فإنها تصبح  
أقصر بمسافة ١٤٢ ألف كيلو متراً . كما أنها تستغرق وقتاً أقل بنسبة  
٧٠ في المائة . ومثل آخر عن رحلة من تريستا إلى بومباي ، نجد فيه أن  
مسافة الرحلة عبر القناة تقل بمقدار ٧٤ ألف كيلو متراً ، وأن الوقت  
الذي تستغرقه الرحلة يقل بنسبة ٦٠٧ في المائة . وتوفر السفن الغربية  
التي تمر بالقناة متجهة إلى الخليج الفارسي مسافة تبلغ ٦٤٨٢ كيلو متراً ،  
ولهذا أهميته الكبرى بالنسبة للدول الغربية التي تزود من الخليج الفارسي  
بأربعة أخماس كمية البترول اللازمة لاستهلاكها ، ولقد بلغت نسبة ناقلات  
البترول المارة بالقناة سنة ١٩٥٥ ، ٦٥ في المائة من مجموع السفن التي  
عبرت القناة في تلك السنة . وارتفعت هذه النسبة إلى ٧٢٤ في المائة في  
سنة ١٩٥٦

وتملك الدول الرأسمالية ، وفي مقدمتها بريطانيا والولايات المتحدة  
وفرنسا ، الجزء الأكبر من البترول المنقول عبر القناة . ففي عام ١٩٥٥  
مثلاً ، نقلت بريطانيا ٢٠ مليون طن من البترول عبر القناة ، أي ما يوازي  
٧٠ في المائة من مجموع ما تستورده من البترول سنوياً ، كما نقلت فرنسا



١٢ مليون طن من البترول ، أى أنها اشترت من منطقة الشرقين الأدنى والأوسط ٩٤ فى المائة من البترول اللازم لاستهلاكها .

وتمر قوافل السفن البريطانية والأمريكية والفرنسية بالقناة كل يوم وهى تحمل — بالإضافة إلى البترول ومنتجاته — القطن والمطاط والزنك وركاز الحديد والجوت والأرز والزيوت النباتية وما يماثلها ، من بلدان الخليج الفارسى ومن الشرق الأقصى .

ويكشف نوع البضائع التى تنقلها السفن عبر القناة عن السبب الحقيقى وراء الاهتمام الخاص الذى يبديه الاحتكاريون الانجليز والفرنسيون والأمريكيون ، ذلك الاهتمام الذى اتخذوا منه مبرراً لموقفهم المضاد تجاه الحكومة المصرية عندما قررت تلك الأخيرة تأمين القناة ، ويرجع هذا الاهتمام إلى أعمال نهب وسلب المواد الأولية ، التى يقوم بها هؤلاء الاحتكاريون بلا خجل فى المستعمرات والبلاد الواقعة تحت سيطرتهم ، وهى المواد التى تنقل بعد نهبها وسلبها فى سفن تعبر قناة السويس .

وهناك بلاد أخرى تستفيد بقناة السويس ؛ فبينما بلغ عدد البلاد الأجنبية التى تستخدم هذا الممر البحرى عام ١٩٠٠ خمسة عشر بلداً ، بلغ عددها قبل الحرب العالمية الثانية ٢٣ بلداً ، ثم زاد هذا العدد فى سنة ١٩٥٥ إلى ٤٨ بلداً ، وذلك نتيجة لنمو التجارة الدولية . ومن بين البلاد الجديدة التى استخدمت القناة الهند وسوريا وبورما وأندونيسيا وبلدان أخرى حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية .

ويستخدم الاتحاد السوفيتى قناة السويس كثيراً فى نشاطه التجارى الدولى ، إذ أنه يتبادل التجارة عبر القناة مع بلدان مثل الصين الشعبية وجمهورية فيتنام الديمقراطية والهند وأندونيسيا وبورما وإيران وغيرها من البلدان .

وتستخدم الصين الشعبية قناة السويس كذلك ، كما تستخدمها

ديمقراطيات شعبية أخرى ، وخاصة تشيكوسلوفاكيا وبورما والمجر .  
وهكذا ، فإن جميع البلاد تهتم بالملاحة في القناة . وقد ضمنت الحكومة  
المصرية حرية تلك الملاحة في وقت السلم ، كما أعلنت رسمياً أنها تتحمل  
مسئولية تنظيم وتأمين الملاحة في القناة . فقد أعلن الرئيس جمال عبدالناصر ،  
رئيس الحكومة المصرية ، أن مصر ستؤمن حرية الملاحة عبر القناة ، وأن  
القناة ستظل — كما كانت من قبل — تكفل الصلات التجارية الدولية .  
وفي الوقت ذاته ، أكدت مصر أنها ستحترم نصوص اتفاقية القسطنطينية  
المبرمة سنة ١٨٨٨ ، التي تكفل حرية مرور السفن عبر القناة .

لقد دلت الأحداث على أن مصر تكفل فعلاً حرية الملاحة عبر القناة ؛  
فعلى أثر التأميم ، ظلت السفن التابعة لمختلف الدول تمر بالقناة دون عائق ،  
بل وقد زاد عدد السفن التي مرت بالقناة بعد تأميمها عما كان عليه عدد  
السفن التي مرت بالقناة خلال الفترة الماثلة من السنة السابقة . ففي الفترة  
ما بين أول يوليو سنة ١٩٥٦ إلى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٦ بلغ عدد السفن التي  
مرت بالقناة ٣٨٨٨ سفينة تابعة لمختلف بلاد العالم ، وأكثرها من السفن  
البريطانية والفرنسية ، بينما لم يمر بالقناة في مثل تلك الفترة سنة ١٩٥٥  
سوى ٣٦٤٢ سفينة .

وتدحض هذه الحقائق الحجج التي ساقها الدول العربية ضد مصر  
عند تأميم القناة ، فقد زعمت الدول العربية أن الحكومة المصرية لم تكفل  
بما يكفي حرية الملاحة وانتظامها في القناة .

وإن الأهمية العامة لاستخدام ممر مائي له حيوية قناة السويس ، تعطى  
جميع الدول المستخدمة لذلك الممر الحق في أن تشارك في مختلف القرارات  
الخاصة بنظام الملاحة .

ومع ذلك ، فقد تجاهت الدول العربية ذلك الحق المعترف به وفقاً  
لقواعد القانون الدولي ، عندما دعت إلى عقد مؤتمر لندن في أغسطس

سنة ١٩٥٦ ، إذ لم توجه الدعوة إلا لأربعة وعشرين دولة من الدول الثمانية والأربعين التي تستخدم القناة . واستخدم الداعون إلى ذلك المؤتمر حجة مبدأ « مصالح الأغلبية » المزعوم ، لتبرير استبعادهم لبقية الدول ، وبنوا نظرية « مصالح الأغلبية » على أساس النسبة المئوية للسفن التابعة لمختلف الدول التي تستخدم القناة ، وكان هذا المبدأ خطأ في حد ذاته ، إذ أنه يتعارض مع الحق المشروع لجميع الدول المستخدمة للقناة في أن تشارك في المؤتمر .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، إذ لم يحترم الداعون للمؤتمر حتى ذلك المبدأ الذي ابتدعوه ، فقد اشتركت أثيوبيا وباكستان ، مثلاً ، في مؤتمر لندن ، ولكن نصيبهما من مجموع حمولة السفن المارة بالقناة في عام ١٩٥٥ كان أقل من نصيب بلاد أخرى عديدة لم تدع إلى المؤتمر ، فقد بلغ نصيب أثيوبيا من حمولة السفن المارة بالقناة سنة ١٩٥٥ ، ٢٦٣٢٤ طناً ، وبلغ نصيب باكستان ١٥٠٤٦٦ طناً ، بينما بلغ نصيب المملكة العربية السعودية من مجموع حمولة السفن المارة بالقناة سنة ١٩٥٥ ٣٨٢٩٥٧ طناً ، وبلغ نصيب بولونيا ٨٣٦٤٢٧ طناً ، وبلغ نصيب يوغوسلافيا ١٨٠٣٨٠ طناً ، وبلغ نصيب تشيكوسلوفاكيا ١١٨١٦١ طناً ، ولكن حكومات هذه الدول الأخيرة لم تدع إلى مؤتمر لندن بينما دُعيت إليه حكومتا أثيوبيا وباكستان .

والواقع هو أن مبدأ الدعوة إلى المؤتمر كان مختلفاً تماماً عن مبدأ « مصالح الأغلبية » المزعوم ، فقد اتضح أن أغلبية المشتركين فيه أعضاء في التكتلات العسكرية المعروفة مثل حلف شمال الأطلسي وحلف بغداد وحلف جنوب شرق آسيا .

\* \* \*

لقد ظلت قناة السويس لمدة طويلة واقعة تحت إشراف الاحتكاريين

الانجليز ، ويرجع سبب اهتمام الاحتكاريين الانجليز بقناة السويس ، اهتماماً خاصاً ، إلى قيمتها بالنسبة لهم من الناحيتين الاستراتيجية والاقتصادية ، فالقناة تصل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بأقرب سبيل ، وهى لذلك من أهم الطرق البحرية الدولية فى العالم ، ولما كان برزخ السويس هو نقطة التقاء أفريقيا وآسيا ، فان القناة تمثل مفترق الطرق فى خطوط الملاحة البحرية وخطوط المواصلات الجوية والبرية بين آسيا وأوروبا ، وبين أفريقيا وآسيا .

ولقد أتاحت سيطرة الانجليز على قناة السويس لهم الإشراف على أهم طرق المواصلات الدولية البحرية والجوية ، والاحتفاظ بالشرقين الأدنى والأوسط فى قبضتهم . ولقد نوه الحكام الانجليز بالأهمية الاستراتيجية الحيوية لقناة السويس عندما أطلقوا عليها أسماء مثل « مفتاح الشرق » و « باب الشرق » و « الجسر نحو آسيا » .

وفى خلال سنوات السيطرة البريطانية ، حولت القناة إلى قاعدة عسكرية بريطانية ذات أهمية كبيرة فى الشرقين الأدنى والأوسط . فقد أصبحت قناة السويس حلقة فى سلسلة القواعد العسكرية البحرية القوية التى أقامتها بريطانيا العظمى من الجزر البريطانية إلى الهند وإلى استراليا ، مارا بجبل طارق وفاماجوستا بقبرص وبورسعيد والسويس وعدن وجزر موريس فى المحيط الهندى وسنغافورة . وقد أقام الانجليز سلسلة من الاستحكامات الاستراتيجية والمطارات والمنشآت العسكرية الأخرى على طول القناة ، وخاصة حول البحيرات المرة ، وخرقوا بذلك الوضع الدولى للقناة ، الذى نصت عليه اتفاقية القسطنطينية المبرمة سنة ١٨٨٨ بشأن قناة السويس ، وهى الاتفاقية التى تحظر إقامة أى منشآت عسكرية على طول القناة ، واتخذت القوات البريطانية مقرا رئيسيا لقيادتها فى فايد بمنطقة القناة ، كما اتخذت من أبو سلطان قاعدة خزنت فيها أضخم كمية من

المدخائر والمفرقات في الشرق الأدنى ، وأقامت في أبو صوير مطارا عسكريا على مساحة من الأرض تبلغ عشرة كيلو مترات ، وأنشأت التواعد العسكرية والمطارات في البلاح وكسفرية والشلوفة والسويس ، وأقامت المعسكرات في التل الكبير ، وهكذا ... وقد كتب لويس هاستنجز ، الصاغ بالجيش البريطاني ، يقول : « إن هناك سلسلة متكاملة من المنشآت الحربية بين السويس وبورسميد تشمل ثكنات ومطارات ووحدات رادار وخطوط مواصلات ومراكز قيادة ومنشآت صناعية وتكنيكية متعددة لازمة للحرب الحديثة . »

إن مثل هذا الاعتراف من جانب ممثل للدوائر العسكرية البريطانية يفصح الصفة الحقيقية لتلك الاجراءات « الدفاعية » المزعومة التي اتخذتها الحكومة البريطانية في منطقة قناة السويس . فقد كانت القوات البريطانية ترابط في منطقة القناة لأغراض ليست « دفاعية » ، إذ بلغ عدد الجنود الانجليز في المنطقة ١٠٠ ألف جندي ، ومما يجدر ذكره أن هذا العدد كان يفوق بمقدار عشرة أمثال العدد المسموح به بمقتضى معاهدة ١٩٣٦ البريطانية — المصرية . وخرق الانجليز تلك المعاهدة كذلك عندما وسموا المنطقة المسموح بوجود الجنود الانجليز فيها بمنطقة القناة ، حسب ما أشارت إليه الصحيفة الأمريكية « يوناتيد ستيتس نيوز آند ورلد روبرت » في حينه .

ولقد كتبت تلك الصحيفة في عددها الصادر بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٥٢ ، في معرض الحديث عن أهمية وجود القوات البريطانية في منطقة القناة ، فقالت : « إن عدد هذه القوات يكفي لحماية القناة من أى هجوم يقوم به الجيش المصرى » . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا المقال قد ظهر في وقت كانت فيه القوات البريطانية تشن حربا غير معلنة ضد الأمة المصرية .

وكذلك ، استغلت بريطانيا قواتها العسكرية في منطقة القناة لمحاربة الأمم التي كانت تناضل في سبيل حريتها واستقلالها .  
ولقد كانت القوات المسلحة البريطانية والقاعدة العسكرية القوية في منطقة القناة تتيح لبريطانيا أن تهدد تهديدا مستمرا بلاد الشرقين الأدنى والأوسط وفي مقدمتها البلاد العربية .  
وإن انتقال قناة السويس إلى أيدي مالكيها الحقيقي ، وهو الشعب المصري ، يغير الموقف في هذا الجزء من العالم ، إذ تحولت قناة السويس بذلك من قاعدة عسكرية خطيرة للاستعماريين إلى باب مفتوح فعلا للملاحة لجميع الدول .

# تاريخ قناة السويس

ممثل فاضح على تصاريح الاستعمارين  
في مييل السيطرة على المراكز الرئيسية لمخطوط الملاحة وتقسيم العالم

إن تاريخ قناة السويس ، باعتباره تاريخ أقصر طريق يربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ، يرجع إلى أبعد القرون من الزمان . فمنذ ما يزيد على ألف سنة ، قام فراعنة مصر بحفر قناة تربط البحر الأحمر بالنيل ، ومن هناك تم الاتصال بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط عن طريق الفرع البلوزي للنيل ( وهو فرع لم يعد موجودا اليوم ) . وأدت تلك القناة ، التي تكلفت أرواح ما يزيد على ١٠٠ ألف عبد ، خدمات عظيمة لتجارة مصر مع الشرق . وخلال القرون التي انقضت منذ ذلك الحين ردمت الرمال تلك القناة مزارا وأعيد فتحها مرات عديدة أيضا . وهناك نقش حفره الملك الفارسي داريوس عند مدخل القناة يذكرنا بتلك الحقبة من تاريخ القناة . وقد جاء في هذا النقش : « أنا فارسي من بلاد فارس ... لقد غزت مصر وقررت حفر القناة . ولقد تم حفر القناة بأمرى ، وتمر بها السفن مسافرة بين مصر وبلاد فارس بأمرى . »

وقد ظلت القناة القديمة موجودة حتى سنة ٧٧٦ من التقويم الهجري ، عندما ردمتها الرمال ، وأهمل تطهيرها بأمر الخليفة عمر المنصور الذي

كان يخشى تسرب النفوذ الأوربي إلى البلاد العربية عن طريقها . ومنذ ذلك الحين ، وخلال ما يزيد على ألف سنة ، ظل أقصر الطرق الموصلة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر مقفولا .

وقد بدأت حقبة جديدة من تاريخ قناة السويس عندما ظهرت الرأسمالية ونمت ، وقد أصبحت تلك الحقبة مشهورة في التاريخ السياسي العالمي باسم يدعو إلى الأسي هو اسم « مشكلة السويس » ، وهي المشكلة المرتبطة بأحداث الخاصة بتأميم « شركة قناة السويس » الموصوفة زعما بأنها شركة « عالمية » .

وإن الجوهر السياسي لذلك التاريخ هو التصارع المتزايد الشدة بين المقتصبين الناهبين الرأسماليين في سبيل السيطرة على البلد الذي تقع فيه القناة ، أى في سبيل السيطرة على مصر .

ولما كانت قناة السويس هي أقصر الطرق البحرية الموصلة للشرق ، فإن لها مزايا كبيرة في ميدان التصارع من أجل الحصول على أسواق جديدة ، ومن أجل الحصول على المواد الأولية . ولقد كانت القناة — حتى قبل حفرها — هدف اهتمام الاستعماريين . فمنذ القرن السابع عشر ، وطوال نحو ثلاثمائة سنة ، يدور تصارع لاهوادة فيه بين بلدين رأسماليين قويين هما إنجلترا وفرنسا حول مصر ، التي يقع في أراضيها مركز القناة ، لأن السيطرة على مصر وحفر القناة يتيحان لهاتين الدولتين الكبيرتين وضع مشرعات بعيدة المدى .

وقد كانت فرنسا راغبة — خلال ذلك التصارع — في حرمان إنجلترا من مزايا سيطرة تلك الأخيرة على الطريق الوحيد الموصل إلى الشرق ، وهو الطريق حول أفريقيا ، وكانت فرنسا راغبة في الوصول إلى الهند للقضاء على نفوذ بريطانيا العظمى الاقتصادي والسياسي .

وكان لدى الاستعماريين الإنجليز خططا مماثلة . فقد كانوا — بدورهم —



يرغبون في السيطرة على الطريق الموصل بأسرع ما يمكن إلى الهند التي كانوا يسمونها «جوهرة الامبراطورية البريطانية» ، ويرغبون كذلك في توسيع إمكانيات الحصول على أسواق جديدة استعمارية في الشرق .

ولم تبخل فرنسا وانجلترا ، تحدهما تلك الأغراض الاستعمارية ، بالجهود في سبيل فرض نفوذ كل منهما على مصر . ولم تذهب جهود فرنسا سدى ، إذ حصل الرأسماليون الفرنسيون على امتياز إقامة الشركة الفرنسية للشرق الأدنى التي تحمل التجارة عبر مصر ، بعد أن كان من المحظور حتى ذلك الحين حصول البلاد الأوربية على مثل ذلك الامتياز . وبدأت فرنسا عقب ذلك في دراسة سلسلة من المشروعات دراسة جدية تمهيدا لحفر قناة السويس ، بل وبدأت تتطلع إلى غزو الأراضي المصرية

ومن ناحية أخرى ، لم تنجح إنجلترا في التسرب إلى مصر ، ولكن البورجوازية الانجليزية كانت تعزز مراكزها في البحر الأبيض المتوسط وفي البحر الأحمر ، وهي مراكز تقوم بدور نقط الارتكاز حول مصر وحول قناة السويس المستقبلية . ففي سنة ١٧٠٤ ، استولت إنجلترا على جبل طارق ، وكفلت بذلك السيطرة على المدخل الغربي للبحر الأبيض المتوسط وبالتالي السيطرة على مدخل نحو مصر . أما فيما يتعلق بالسيطرة على الداخل من ناحية الشرق ، فقد كفلت لنفسها ذلك بغزو سلسلة من المراكز الرئيسية في البحر الأحمر . وظهرت الكتب في إنجلترا لتعدد المزايا التي يمكن أن تنتج عن قناة السويس بالنسبة لتجارة إنجلترا مع الهند الشرقية .

وتزايدت حدة التصارع بين فرنسا وبريطانيا العظمى في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، خلال تلك المرحلة التي كانت فيها تجارة البلدين مزدهرة ، والتي اتجه فيها نشاطهما نحو الاستعمار . وقام — خلال ما يزيد على عشرين عاما — صراع لارحمة فيه بين فرنسا

وانجلترا في سبيل السيطرة على مصر .

لقد قال نابليون : « علينا أن نسيطر على مصر وأن نحفر قناة السويس ، لكي تنزل بالانجليز هزيمة حقيقية » . ولتحقيق هذا الهدف ، بدأت في سنة ١٧٩٨ الحملة الفرنسية على الشرق بغية تحقيق السيطرة على مصر ، وهي الحملة التي قادها نابليون وقام أثناءها بتنظيم الأعمال الخاصة بحفر قناة السويس . ولكن مشروعات نابليون انتهت بالفشل الذريع نتيجة للهزيمة التي ألزها الأسطول الانجليزى بالأسطول الفرنسى سنة ١٧٩٩ ، ونتيجة لنضال الشعب المصرى في سبيل حريته . واستغلت إنجلترا هذا الفشل في تدعيم مراكزها في البحر الأبيض المتوسط ، وقامت بمحاولة لنزو مصر .

وفي سنة ١٨٠٠ ، غزت إنجلترا جزيرة مابطة التي وصفها وزير الخارجية البريطانية بأنها « مفتاح مصر » . وبعد سبع سنوات زارت حملة بريطانية في الاسكندرية ، ولكن الشعب المصرى قاوم الغزاة . وفضى على المشروع الانجليزى العدوانى . واتقضى زمن طويل دون أن يستطيع الاستعماريون الفرنسيون والانجليز تحقيق مشروعاتهم لفرض سيطرتهم على بزخ السويس . وفي أواخر سنة ١٨٤٠ ، عاد الاستعماريون إلى بحث مسألة خنر ماء السويس . وذلك بعد أن استفادت إنجلترا من تدعيم مراكزها تدعماً قوياً في الشرق الأدنى ، وبعد أن استطاع رأس المال الانجليزى أن يدخل إلى مصر بشكل متزايد قوى . وفي سنة ١٨٥١ ، نجحت إنجلترا في أن تحصل من عباس الأول ، خليفة محمد على ، على امتياز إقامة خط سكة حديد بين القاهرة والسويس ، واعتبر الاستعماريون الانجليز ذلك النجاح خطوة كبيرة إلى الأمام نحو حصولهم في المستقبل على امتياز لحفر قناة السويس ، ونحو إمكان فرض سيطرتهم على الأراضى المصرية . ولكن المصاعب الداخلية وغيرها من المصاعب في إنجلترا ألزمت بريطانيا العظمى بالتخلي عن مشاريع غزو

مصر وحفر القناة . أما فرنسا ، فكانت على العكس من إنجلترا : إذ هي قد حققت تقدماً صناعياً كبيراً في سنوات ما حول ١٨٥٠ ، وعززت توسعها في تلك المنطقة . وبهذا بدأت مرحلة جديدة من التنافس الإنجليزي — الفرنسي ، وهو تنافس ظل متجهاً نحو التسابق على حفر قناة السويس .

لقد كتبت صحافة الاحتكارات ، ولا زال تكتب ، المقالات الطويلة عن وصف قناة السويس باعتبارها « مثل للجهود المشتركة العظيمة التي بذلها الغرب لمصلحة مصر » ، ولكن تاريخ حفر قناة السويس ينبغي ويكذب ذلك الادعاء نفياً وتكذيباً كاملاً .

ففي سنة ١٨٥٤ ، نجح فرديناند دي ليسيبس ، الفرنسي ، في أن يحصل من وإلى مصر سعيد باشا على امتياز حفر قناة السويس . وكان دي ليسيبس من رجال الأعمال ، كما كان دبلوماسياً مرموقاً ، وكان من عائلة ترتبط بالدوائر الحاكمة في فرنسا ، وهي الدوائر التي كانت تقيم سياستها على أساس الغزق الاستعماري .

ومهدت الصداقة التي كانت تربط فرديناند دي ليسيبس بسعيد باشا حصول دي ليسيبس على الامتياز ، وتحقيق ذلك الحدث التاريخي بطريقة بسيطة . ففي أثناء زهرة على ظهور الخيل اشترك فيها سعيد باشا وفرديناند دي ليسيبس ، وكان هذا الأخير فارساً لا نظير له ، أثار دي ليسيبس فضول سعيد باشا وتحمسه للمشروع ، ثم سارع — وهو رجل الأعمال الماهر الخبير — باستغلال ذلك الفضول وتلك الحماسة ، وطالب سعيد باشا بأن يمنحه امتياز حفر القناة ، فوافق على الفور قائلاً له : « اعتبر هذه المسألة منتهية » . وما انقضت عشرة أيام ، حتى قدم دي ليسيبس لسعيد باشا مشروع اتفاق الامتياز ، فبادر الأول بتوقيعه دون أن يقرأه . وبهذه الطريقة حصل الوكيل الفرنسي على الامتياز . وكان عنوان الوثيقة

التي وقعها سعيد باشا هو : « المرسوم الحديوى لامتياز حفر واستغلال قناة السويس والأراضى التي تمر فيها بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ابتداء من ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ » .

ويرجع نجاح دى ليسيبس فى الحصول على الامتياز إلى سبب آخر هو ما كان يربطه من علاقات عائلية بـ زوجة نابليون الثالث ، الامبراطورة أوجيني ، التي قامت بدور نشيط فى تأييد مساعى دى ليسيبس واستخدمت فى ذلك نفوذها لدى سعيد باشا .

ومن ثمت ، فليس عجباً أن الامتياز الذى حصل عليه دى ليسيبس اشتمل على تساهلات لا نظير لها ، وقد كتب ادوارد ديزى ، المؤرخ والناشر الانجليزى المعروف ، يقول فى ذلك الصدد : « لم يحدث أبداً أن منح امتياز يكفل مثل تلك المزايا للحاصل عليه ، ويلقى مثل تلك الأعباء والتكاليف على عاتق من أصدره ، مثل الامتياز الذى منحه سعيد باشا لشركة السويس » .

ولقد أعطى مرسوم الامتياز الصادر سنة ١٨٥٤ ، والرسوم المكمل له والصادر سنة ١٨٥٦ ، دى ليسيبس ، الحق فى إنشاء شركة مساهمة هى « شركة قناة السويس العالمية » ، إذ كان من المتوقع أن يقوم الرأسماليون فى البلاد التي يهملها أمر هذا الطريق المائى الممثل فى تلك القناة ، بتمويل عمليات حفرها ، بينما كانت الشركة ، من الناحية القانونية ، ووفقاً لوثائق الامتياز ، شركة مصرية ، أى أنها تعمل باسم الحكومة المصرية وتخضع للقوانين المصرية .

ومع هذا ، فإن الاستعاريين قد استطاعوا أن يضعوا يدهم ، بمساعدة تلك الشركة ، على الأراضى التي تمر بها القناة وعلى ترعة المياه العذبة ، كما وضعوا أيديهم على الأراضى التي تقع على ضفتي القناة ، وأصبحت الشركة — بهذا — واعدة يدها على مساحات من الأراضى المصرية يبلغ مجموعها

١٣٣ ألف هكتار ، وهى أراضى كانت تملكها الحكومة المصرية والفلاحون المصريون الذين عوضتهم الشركة تعويضاً لا مقياس له ووصل إلى حد منخفض بحيث أتاح للشركة الحصول على تلك الأراضى بدون مقابل تقريباً ، واضطر الفلاحون ، بعد أن فقدوا مصادر عيشهم وأفلسوا ، إلى أن يلجأوا إلى الشركة لكي يقوموا بحسابها بأعمال شاقة مقابل أجور تافهة ، كما نجحت الشركة أيضاً فى الحصول على كميات لا حد لها من مواد البناء دون مقابل من المناجم والمحاجر الحكومية ، وفى استيراد الآلات والمعدات بعد إعفاؤها من الرسوم الجمركية . وفى الوقت ذاته ، قدمت الحكومة المصرية للشركة أربعة أحماس العمال اللازمين لأعمال الحفر ، وكان عقد الامتياز يقرر أن النسبة الكبرى من الأرباح وقدرها ٨٥ فى المائة تعود للمؤسسين والمساهمين ، بينما يقرر للحكومة المصرية ١٥ فى المائة من تلك الأرباح . والواقع أن تلك الشروط قد فرضت العبودية على مصر ، وربطتها برباط التبعية الكاملة لشركة قناة السويس ، وهو الأمر الذى هدف إليه دى ليسيبس .

وما أن أنشأ دى ليسيبس شركة قناة السويس على وجه السرعة ، حتى حولها بسهولة من مؤسسة مصرية إلى مؤسسة تخدم مصالح فرنسا الدائية ، واستطاع الرأسماليون الفرنسيون بمساعدته أن يستولوا على نصيب « الأم الأخرى » ، وأن تصبح فى أيديهم نسبة ٥٢ فى المائة من الأسهم . ونحسب أن تلك الأسهم كانت موزعة على عدد كبير من المساهمين ، ولم تكن تمثل بذلك قوة مسيطرة من الناحية المالية ، ونحسب أنه كانت للحكومة المصرية نسبة ٤٤ فى المائة من تلك الأسهم ، ولكن الأسهم المصرية ، المجموعة فى محفظة مالية واحدة ، لم تكن تمثل أيضاً أى سيطرة على الشركة ، ونظراً إلى موقف التبعية الذى كانت تقفه الحكومة المصرية تجاه الشركة ، ونظراً إلى أن جميع مساهمى « الأم الأخرى » كانوا من الفرنسيين مع استثناءات

قليلة . ومن ثمت فقد كانت فرنسا تتمتع بقدر كبير من حرية التصرف في القناة . وهكذا بدأت الشركة نشاطها في مصر للنهب والاستغلال وهو نشاط لم يوضع له حد إلا أخيراً .

ولكن هذا النجاح الفرنسي ما لبث أن أثار عاصفة في إنجلترا ، فما كانت الحكومة البريطانية لتسمح — بأى ثمن — بأن تصبح القناة المقبلة ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية القصوى ، واقعة في أيدي فرنسا ، وسرعان ما أعلنت إنجلترا بلهجة شديدة أنها ضد إنشاء قناة السويس ، وهدفت بتلك المعارضة إلى إبعاد فرنسا — دون الدخول معها في حرب — عن برزخ قناة السويس ، والاحتفاظ بذلك باحتكارها للطريق الوحيد الموصل للشرق ، وهو الطريق حول أفريقيا .

وشنت إنجلترا نضالها ضد فرنسا في جبهتين لمنع إنشاء القناة ، فبدأت — من ناحية — في التدليل على ما زعمته من استحالة تنفيذ المشروع الفرنسي من الناحية التقنية ، وهدفت بذلك إلى إخافة الرأسماليين « السذج » وإبعاد رؤوس أموالهم عما وصفته بأنه عملية « نصب » ، ووقف بالمرستون ، رئيس الوزراء الإنجليزي ، في مجلس العموم ، يلقى خطاباً هاماً وصف فيه المشروع الفرنسي بأنه « عملية نصب فرنسية » ترمى إلى سرقة أموال الرأسماليين .

وفي الوقت ذاته ، قامت إنجلترا بالضغط على تركيا ، وقد كانت مصر جزءاً منها حينذاك ، للحصول على رفض السلطان التصديق على الامتياز الممنوح لدى ليسيبس .

ومع هذا ، فلم تفلح جميع تلك الجهود التي بذلتها إنجلترا ، وأصبحت أسهم الشركة تباع بأسرع مما كان يقدر لها لدى ليسيبس نفسه ، بينما تناحزت فرنسا ببساطة عن الصعوبة التي نشأت بسبب عدم تصديق « السلطان الماكر » أو « السلطان سترافورد » ، كما كانت تدعوه فرنسا

لكي تؤكد تبعيته لـ إنجلترا . وأثار الفرنسيون - كما سبق لهم أن أثاروا - سابقة أن الانجليز قد حصلوا على امتياز مد السكة الحديدية بين القاهرة والسويس دون أن يصدق السلطان على ذلك الامتياز تصديقاً رسمياً ، وبدأ دى ليسيبس ، بتأييد من نابليون الثالث ودون أن ينتظر تصديق تركيا على الامتياز ، أعمال حفر وإنشاء القناة في ربيع سنة ١٨٥٩ . وفي أواخر سنة ١٨٦٥ كان الجزء الأكبر من العمل قد انتهى .

وقد جرت أعمال إنشاء القناة ، في أحوال قاسية بصفة خاصة في صحراء بلاماء وتحت شمس حارقة وبدون أية مساعدات ميكانيكية ملائمة ، فكان ثمنها أرواح عشرات الألوف من المصريين ، حتى بلغ عدد الموتى ١٢٠ ألفاً ، وهكذا قامت قناة السويس على جثث المصريين .

وعندما وجدت إنجلترا نفسها أمام حقيقة نجاح « العملية الشيطانية الفرنسية » ، اضطرت إلى تعديل موقفها تجاه قناة السويس ، واتجهت جميع الجهود إلى أن تصبح القناة — مهما كان الثمن — تحت سيطرة الحكومة البريطانية ، واتجهت الجهود أساساً نحو استغلال الحالة المالية الصعبة التي أصبحت فيها مصر ، بسبب أعمال إنشاء القناة .

وفي سنة ١٨٦٦ ، طالب السلطان بوجوب تعديل اتفاق الامتياز قبل التصديق عليه ، وكان التعديل يتعلق ، إلى حد كبير ، بالشروط المالية الخاصة بمصر . ونتيجة لذلك التعديل ، قلت حقوق الشركة والمزايا التي تتمتع بها ، واستطاعت مصر — نتيجة لذلك التعديل — أن تستعيد جزءاً كبيراً من أراضيها التي كانت الشركة قد وضعت يدها عليها . وبينما أصبح للشركة الاشراف على إدارة القناة ، أصبح للمصريين الاشراف على الأعمال الانشائية .

ولكن ما لبثت مصر أن اضطرت إلى أن توقع اتفاقاً جديداً مع الشركة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ ، كنتيجة لقيام دى ليسيبس بالشكوى

ضد تعديل اتفاق الامتياز ، وقيام نابليون ، «غير المتحيز» زعماء ، بالتحكيم بين مصر والشركة . وكان على مصر ، بمقتضى شروط الاتفاق الجديد ، أن تدفع ، للاستعماريين الفرنسيين ، مبلغاً كبيراً من المال ، لقيامها بما زعم من خرق لشروط اتفاق الامتياز . ومعنى ذلك ، أنه كان على مصر أن تدفع ثمن أراضيها التي استرجعتها ، وأن تدفع أجور العمال المصريين الذين استغلّتهم الشركة في أعمال إنشاء القناة . وساعد حصول الشركة على تلك الأموال الكبيرة على إنهاؤها مهمتها بسرعة ، وتم في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ افتتاح قناة السويس .

لقد جرى الاحتفال في جو من الفخامة ، وأنفقت الحكومة المصرية مبالغ طائلة عليه ، وأدى ذلك إلى اقترابها أكثر فأكثر إلى الإفلاس . واشترك في الاحتفال عدد كبير من ممثلي البلاد الأجنبية ، وأقيمت لاستقبالهم القصور الفاخرة واليخوت ، ودفعت مصر الثمن ، وطلب الخديوى بمناسبة تلك الاحتفالات بأن يكتب الموسيقار فردى أوبراه المشهورة « عابدة » التي قامت بعرضها لأول مرة في القاهرة فرقة إيطالية دعيت لذلك خصيصاً . وفي يوم الافتتاح ، مرت ٦٧ سفينة في شكل استعراض بالقناة وفي مقدمتها اليخت الفاخر الذي أطلق عليه اسم « أوجيني » تكريماً لامباطورة فرنسا التي كان يحملها ذلك اليخت ، واستمرت الاحتفالات عدة أسابيع . وبلغت تكاليف إنشاء القناة ومصاريف احتفالات افتتاحها مبلغ ٤٥٠ مليون فرنك ، وأصبحت الخزانة المصرية خاوية . وكان على مصر أن تلجأ إلى البنوك الأجنبية طالبة « مساعدة » مالية .

وانتهزت إنجلترا ، التي كانت تنتظر اللحظة المناسبة ، تلك الفرصة ، وشرعت في تنفيذ مشاريعها الاستعمارية . وسارعت البنوك الإنجليزية بتقديم القروض إلى الحكومة المصرية بشروط هي شروط النهب والسلب ،



واستخدم الرأسماليون الانجليز جميع المناورات التي زادت موقف الحكومة المصرية صعوبة ، وبدأت انجلترا تتحدث علناً عن « عطفها » على شركة قناة السويس ، وبدأت تكشف عن اهتمامها بالقناة ، بل وسارعت إلى مكافأة ذلك الرجل الذي سبق أن وصفته بأنه « محتال » ، ومنحته الحكومة الانجليزية عدة أوسمة رفيعة ، وأسبغت عليه لقب مواطن لندن . وبذلك الطريقة ، قدمت انجلترا المثل الأول — إذا صح ذلك التعبير — من خططها المستقبلية الماكرة التي رسمتها للاستيلاء على القناة ، ثم خطت الخطوة الأولى في تلك الخطة سنة ١٨٧٥ عندما اشترت الأسهم التي تملكها الحكومة المصرية التي كانت سائرة في طريق الافلاس .

والواقع أن عملية شراء انجلترا للأسهم الحكومية المصرية كانت عملاً من أعمال القرصنة الحقة ، فقد اشترت الحكومة الانجليزية ١٧٢٦٠٢ سهماً بمبلغ أربعة ملايين جنيه استرليني فقط ، بينما بلغت قيمة تلك الأسهم في سنة ١٩٢٩ مبلغ ٣٨٠٦ مليون جنيه استرليني ، وخسرت مصر خلال تلك الفترة مبلغ ١٠٦ ملايين جنيه . وفي سنة ١٩٥٠ ، بلغت أرباح الأسهم ٦٣ مليون جنيه استرليني ، أى ما يعادل ١٥ مثلاً لقيمتها الاسمية . وضمن شراء انجلترا الأسهم المصرية حصولها على محفظة مالية تكفل لها السيطرة على الشركة ، بينما كانت الأسهم الفرنسية موزعة على صغار المدخرين ، وقرر ذلك مصير الشركة التي أصبحت تحت السيطرة الانجليزية .

ويرجع نجاح الاحتكاريين الانجليز في تلك العملية إلى حد بعيد إلى مهارة دزرائيلى ، رئيس وزراء انجلترا حينذاك ، والذي أصبح — اللورد بكوسفيلد — فقد كان لدزرائيلى — على حد تعبير مؤرخ حياته — « جواسيس في كل ركن » ، وقد استطاع أن يخدع الفرنسيين . ولكن السبب الرئيسى الذى أتاح للانجليز أن يتفوقوا على منافسيهم الفرنسيين كان راجعاً إلى الضعف الذى أصاب فرنسا نتيجة هزيمتها في الحرب ضد روسيا سنة

١٨٧٠ - ١٨٧١ ، بينما كانت إنجلترا في أوج تقدمها ورخائها الصناعي والمالي وانجاري .

وسبب آخر لنجاح إنجلترا ، هو دور التهدة الذي قامت به بالنسبة للبلاد البحرية الأخرى ، التي كانت ترغب في ضمان الحرية للملاحة عبر قناة السويس . ومع أن تلك الحرية قد كفلتها مصر في نصوص اتفاق الامتياز الممنوح للشركة ، غير أن الدول الأخرى كانت تطالب بعقد مؤتمر دولي . وقامت إنجلترا بنشاط واسع النطاق لدعوة مؤتمر دولي لبحث مسألة الملاحة في قناة ، وذلك حتى تقضى على الشكوك التي كانت تساور البلاد الأوروبية الأخرى حول سياسة إنجلترا تجاه مصر . وقد انعقد ذلك المؤتمر « الدولي » المزعوم في القسطنطينية سنة ١٨٧٣ ، واشتركت فيه جميع بلاد أوربا . وأصدر مؤتمر القسطنطينية بيانا خاصا نظم فيه مسألة رسوم المرور في القناة ، وأعلن فيه حرية الملاحة في القناة ، بينما كانت تلك الحرية مؤكدة ديمشونه بموجب النصوص الخاصة بها في اتفاق الامتياز المصري . ولكن بيان القسطنطينية الصادر في سنة ١٨٧٣ لم يضمن - من وجهة نظر القانون الدولي - النظام الشامل للقناة . ومن ثمت ، فقد ظلت مسألة حياد القناة ، ومسألة تجريد منطقة القناة من السلاح دون حل ، كما كانتا من قبل . وكان ذلك البيان ، في الظروف التي صدر فيها ، يمكن أن يستخدمه الانجليز كسلاح في صراعهم في سبيل السيطرة على مصر ، وكانت الضمانات القليلة الواردة فيه لمصالح البلاد الأوروبية ، تكفل لبريطانيا تحويل انتباه تلك البلاد عن نواياها السياسية الحقيقية .

وأدى نجاح الاستعماريين الانجليز في شراء أسهم الحكومة المصرية في القناة إلى زيادة نشاطهم في مصر . وقد أعلنت إنجلترا منذ سنة ١٨٧٧ أنه « من المستحيل إدارة القناة . بدون أن تكون هناك سيطرة مصرية على ضفتيها وعلى جزء من صحراء سيناء على الأقل .

وكان السبب العالى الذى بررت به انجلترا ذلك الإعلان هو قولها أن « مصر هى البيضة التى تخرج منها الامبراطورية الأفريقية » .

وظلت انجلترا تنتظر اللحظة المناسبة لانزال ضربتها النهائية ، وهى تبذل أقصى الجهود للتعجيل بتلك اللحظة . وفى سنة ١٨٧٦ ، أعلنت الحكومة المصرية - بمساعدة انجلترا - إفلاسها ، وقبلت إشراف البلاد الأجنبية على مصر ، وأقيمت فى البلاد لجنة رقابة مؤلفة من «وزراء أجنب» ، وأصبحت مصر محكومة بواسطة هؤلاء الوزراء الأجانب وكأنها « إقليم من الأقاليم التى غزتها انجلترا فى الهند » ، على حد تعبير أحد الدبلوماسيين الأوربيين . وأثار الموقف الصعب الذى نشأ فى مصر بسبب « التدابير القاسية » التى اتخذها الأجانب سخطا عاما فى البلاد ، وما لبث هذا السخط حتى تحول فى سنة ١٨٨٢ إلى حركة احتجاج واسعة ضد الرقابة الأجنبية . وقدرت انجلترا أن قيام حركة التحرير فى مصر هو اللحظة المناسبة لى تحقق مشاريعها الاستعمارية فى مصر وفى القناة ، فتدخلت عسكريا واحتلت البلاد فى صيف ١٨٨٢ ، بحجة « إقرار الأمن »

وما أن تم الاحتلال ، حتى أصبحت قناة السويس تحت سيطرة الانجليز الكاملة . وقد ظل الاحتلال ٧٤ سنة .

ولقد ساعد الموقف الدولى ، الذى كفل عدم تدخل الدول الأخرى ، انجلترا فى أعمالها الاستعمارية فى مصر وفى قناة السويس . ففرنسا ، وهى منافسة انجلترا ، كانت مشغولة منذ توقيع الاتفاق الثلاثى سنة ١٨٨٢ ، وكانت بذلك تخدم مصالح انجلترا . وكان على فرنسا ، وهى تواجه خطر ألمانيا ، لا أن تركز قواتها فى أوروبا فحسب ، بل وأن تعيد النظر فى سياستها بحيث تقيم علاقات معينة مع انجلترا . وكانت ألمانيا ، وعلى وجه الدقة كان مستشار ألمانيا بسمارك ، يرى أن نمو التناقض الوصولى الانجليزى الفرنسى ، من شأنه أن يعزز مركزه ، ومن هنا فقد جعل ثمة ذلك

التناقض الهدف الرئيسى لسياسته . واتخذت الحكومة القيصريّة فى روسيا الموقف ذاته ؛ لأنها كانت تفضل أن تحتل إنجلترا مصر حتى تصبح لها - هى - حرية التصرف فى آسيا الوسطى .

ولكن « السلام العالمى » ، الذى استطاعت إنجلترا أثناءه أن تستولى على مصر ، « لم يكن سوى هدنة مؤقتة » . إذ سرعان ما أدى تحول الرأسمالية إلى احتكارية وبدء التقسيم « العام » للعالم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، إلى زيادة حدة الاختلافات الاستعمارية بشأن قناة السويس . فبينما كانت الدول الكبرى تتوسع فى الشرق ، كانت تطالب بتوفير أقصى حد من الحرية والأمن فى ذلك الطريق الذى يربط بينها وبين مستعمراتها ، وأثار الاستعماريون لذلك مسألة ضمان مصالحهم فى تنظيم الملاحقة فى قناة السويس .

وأمام الخلافات المتزايدة بين الدول بشأن القناة ، لجأت إنجلترا إلى المساومة . ونظرا إلى الأحداث الأخيرة التى وقعت فى منطقة القناة ، ونظراً إلى ما يثار الآن بشأن تعديل إتفاقية القسطنطينية ، فإن الاتفاقية تستلزم دراسة خاصة وعناية كبيرة .

لقد استغرقت الأعمال التمهيدية للتوقيع على إتفاقية القسطنطينية ست سنوات ، وجرت تلك الأعمال فى جو مشحون بالاختلافات الحادة بين الاستعماريين .

ففى سنة ١٨٨٣ ، كانت إنجلترا قد أعلنت بالفعل أنها « على استعداد » للتباحث مع البلاد المعنية بشأن مسألة وضع نظام دولى وقانونى للقناة ، وأمسأت إنجلترا - من وراء ذلك - فى إعطاء احتلالها لمصر مظهر « الدفاع عن المصالح الدولية » . وقام ممثلو إنجلترا الدبلوماسيون بتسليم البيان الانجليزى ، الذى صدر فى شكل برقية دورية من اللورد جرانفيل ، إلى

حكومات ذلك الوقت في : روسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا — المجر وإيطاليا . واشتملت تلك البرقية كذلك على المبادئ المقترحة للنظام المستقبل في القناة وهي مبادئ هدفت في جوهرها إلى إطلاق يد إنجلترا — تحت ستار موافقة الأمم الأخرى — في الاشراف على القناة .

ولما كان المشروع الإنجليزي لم يراع أي مصلحة من مصالح البلاد الأخرى ، فقد ظلت برقية اللورد جرانفيل بدون رد عليها ، وكان ذلك الموقف يتفق مع رغبة إنجلترا الحقيقية في عدم إقامة أي نظام دولي لقناة السويس .

وبدأت إنجلترا تستخدم خطة المناورات وبذل الوعود ، واستطاعت بذلك أن تؤجل النظر في مسألة القناة مدة سنتين كاملتين . وفي سنة ١٨٨٥ ، اضطرت — تحت ضغط البلاد الأخرى — إلى قبول فكرة عقد مؤتمر دولي ، وبدأ انعقاد ذلك المؤتمر في شهر مارس سنة ١٨٨٥ بباريس ، واشتركت فيه الدول الكبرى وتركيا وأسبانيا وهولندا ( وودعت إليه مصر بصفة استشارية ) . وفي خلال المؤتمر ، بذلت إنجلترا جميع الجهود لصيانة سيطرتها على قناة السويس ، بينما حاولت الدول المنافسة لها إضعاف ذلك النفوذ وضمان مصالحها الذاتية . وكان من نتيجة الاختلافات التي ثارت بين البلاد المشتركة في المؤتمر ، أن عجز المؤتمر عن الوصول إلى أية نتيجة على الرغم من أنه ظل منعقدا لمدة شهرين ونصف شهر ، وأسفر عن تقرير «عرض المشروعات المقترحة على الأمم» . وانقضت ثلاث سنوات من التصارع الحاد قبل أن تصل الدول المتنافسة إلى تسوية . وفي ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ تم في القسطنطينية توقيع وثيقة عنوانها : «إتفاقية خاصة بضمان حرية استعمال قناة السويس البحرية أبرمت في القسطنطينية يوم ٢٩ أكتوبر ١٨٨٨ بين روسيا وألمانيا والامبراطورية النمساوية — المجرية واسبانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وهولندا وتركيا» . ( وقد انضمت إلى تلك الاتفاقية

بعد ذلك اليونان والبرتغال والسويد والنرويج والدانمرك واليابان والصين).

وقد قام نيدوف ، ممثل روسيا ، بتوقيع الاتفاقية نيابة عن الحكومة القيصرية ، وصدقت روسيا على الاتفاق في ١٥ نوفمبر ١٨٨٨ .

وتعتبر البلاد التي وقعت تلك الاتفاقية، أعضاء فيها من الناحية القانونية، ومعنى هذا أنه لا يمكن اجراء أى تعديل في اتفاقية سنة ١٨٨٨ إلا بموافقة جميع البلاد الموقعة عليها ، وإذا حدث غير ذلك ، فإن جميع القرارات التي يجرى اتخاذها بهذا الشأن هي قرارات باطللة ولا قيمة لها على الاطلاق .

وبمضى الوقت ، ازداد عدد الأعضاء المشتركين في اتفاقية ١٨٨٨ نتيجة لتصديق البلاد التي خلفت الامبراطورية النمساوية - المجرية والامبراطورية العثمانية عليه ، وهذه البلاد هي النمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ومعظم البلاد العربية . ولجميع هذه البلاد - باعتبارها الورثة الشرعية للبلاد التي سبق أن وقعت اتفاقية ١٨٨٨ - الحق القانوني في الاشتراك في المناقشات والقرارات الدولية التي تصدر بشأن قناة السويس . وقد أوضحت حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ذلك الحق في « بيان صادر بشأن قناة السويس » بتاريخ ٩ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، قبيل انعقاد مؤتمر لندن نفسه ، ولكن البلاد الغربية اختارت - بطريقة عسفية - البلاد المشتركة في مؤتمر لندن ، ولم تضع في اعتبارها المبادئ الدولية التي يجب مراعاتها في المؤتمرات الدولية . ولم يكن بين البلاد المشتركة في مؤتمر لندن ، بلد واحد من البلاد التي كانت جزءا من الامبراطورية النمساوية - المجرية .

ويتضح مدى تحيز البلاد الغربية في اختيار أعضاء مؤتمر لندن من أن جزءا واحدا من ألمانيا ، وهو جمهورية ألمانيا الاتحادية ، قد دعى للاشتراك في المؤتمر ، بينما رفضت دعوة الجزء الآخر من ألمانيا، وهو جمهورية ألمانيا الديمقراطية . وقد نتج عن هذا التجاهل للحقوق القانونية لمعد من

المشركين في اتفاقية القسطنطينية المبرمة سنة ١٨٨٨ ، من جانب الداعين إلى مؤتمر لندن ، أن اتخذ هذا المؤتمر — لهذا السبب من بين أسباب أخرى — صفة محدودة . فلم يكن المؤتمر ممثلاً بما يكفي للبلاد المعنية ، ولذلك لم تكن قراراته قانونية .

لقد وضعت اتفاقية القسطنطينية المبرمة سنة ١٨٨٨ والتي عالجت عدة مسائل خاصة بقناة السويس ، مبادئ ، للملاحة في القناة ذات أهمية دولية وقانونية كبيرة . فبحققتى هذه الاتفاقية ، تظل القناة مفتوحة للملاحة البحرية في زمن السلم وفي زمن الحرب كذلك ، وحرية الملاحة مكفولة للسفن التجارية كما هي مكفولة للسفن الحربية ، وتسرى مبادئ حرية الملاحة على جميع البلاد التي تستخدم القناة ، بدون أى تمييز أو استثناء . وتناولت الاتفاقية كذلك مبادئ حياد وتجريد منطقة القناة من السلاح ، وهذا يعنى أنها تمنع تحويل القناة إلى منطقة للعمليات الحربية أو إلى قاعدة عسكرية أيما كانت ، كما أنها تمنع إقامة منشآت عسكرية أو مرابطة قوات مسلحة في منطقة القناة . وتعترف اتفاقية ١٨٨٨ بحقوق سيادة الحكومة المصرية على القناة وتوليها مسؤولية ضمان تنفيذ نصوص الاتفاقية .

وتتفق القرارات الهامة المتخذة بموجب اتفاقية القسطنطينية مع الصفة الدولية لقناة السويس ، ويعنى هذا إلى أنه يجب أن تكون مبادئ هذه الاتفاقية هي الأساس لأى اتفاق جديد بشأن نظام قناة السويس .

ومع ذلك ، فإن التصارع بين القراصنة الاستعماريين حول مشروع الاتفاقية ، في باريس ، لم يكن بدون جدوى . ففي اتفاقية ١٨٨٨ ثغرت وغيوب ثقل من قيمة نصوصها . وقد اتضحت هذه الثغرات والعيوب أثناء الاحتلال البريطانى لقناة السويس ، إذ أتاححت الفرصة لبريطانيا لكي تتخذ من اتفاقية القسطنطينية ستارا لتصرفاتها التي تملئها مصالحها الذاتية في قناة السويس .

ومن بين المشكلات والثغرات الخطيرة في اتفاقية ١٨٨٨ خلوها من نصوص خاصة بعبور السفن التجارية التابعة لبلاد في حالة حرب ، وضيق منطقة الحياد في القناة التي لا يزيد اتساعها عن ثلاثة أميال ، وهو اتساع لا يكفي لتأمين سلامة مرور سفن البلاد المتحاربة .

وتقلل هذه الثغرات من قيمة مبدأ حرية الملاحة المنصوص عليه في الاتفاقية ، ولكن من الجدير بالذكر أن إنجلترا أصرت في مؤتمر باريس على الابقاء على هذه النصوص الناقصة . ونظرا لظروف الاحتلال الإنجليزي ولعدد الاستحكامات العسكرية التي أقيمت على ضفتي القناة ، فقد استطاعت إنجلترا — في الواقع — أن تغلق « بصفة قانونية » القناة ، أى أن تنتهك « بصفة قانونية » حرية الملاحة . وقد زادت طريقة استخدام القناة ، فيما بعد ، تلك الحقيقة وضوحاً ، ففي أثناء سنى الحرب العالمية الأولى ، استولت إنجلترا على سفن أعدائها باعتبارها غنائم حرب ؛ واستندت في ذلك على « الحق القانونى » . وبلغ عدد السفن التي استولت عليها خلال الحرب ٥٠ سفينة ألمانية ونمساوية ، بل ولم تتردد إنجلترا في أن تنخرق الاتفاقية خرقاً صريحاً أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ وذلك بإنشائها استحكامات عسكرية على ضفتي القناة ، وقيامها بإغلاق القناة ، وحظر الملاحة فيها لفترة من الزمن .

وقد استفادت إنجلترا من النصوص الناقصة الخاصة باستخدام القناة لأغراض عسكرية في الاتفاقية ، مما قلل فعلاً من قيمة مبادئ الحياد والتجريد من السلاح . إن الاتفاقية تقضى بمنع إزال القوات العسكرية والأسلحة والمواد والمعدات الحربية في منطقة القناة أو عند مدخلها ، ولكنها قصرت هذا المنع على زمن الحرب فقط ، فتمكنت إنجلترا من استكمال وإعداد قواتها العسكرية وقواعدها الاستراتيجية ومخازن تموينها في منطقة القناة ، مما كان له أهمية كبيرة للاستعماريين الانجليز . وإن حشد قوات عسكرية كبيرة وإقامة قواعد قوية في وقت السلم أتاح لإنجلترا أن



تحتفظ على سيطرتها على منطقة القناة ، وأعطاها مزايا على العدو في حالة الحرب ، كما أتاح لها أن تستخدم القناة لأغراض عدوانية حتى في الحالات التي لم تشترك أثناءها رسمياً في نزاع مسلح . وتشهد على ذلك طريقة استخدام إنجلترا للقناة خلال الحرب الروسية — اليابانية سنة ١٩٠٥ ، فمع أنها كانت رسمياً في حالة سلام ، إلا أنها كانت تحايي حليفها اليابان ، وتمنع — بالتواطئ مع شركة القناة — تمويل السفن الروسية بالوقود ، وبذلك كانت تفرض حصاراً استراتيجياً فعلياً ضد روسيا ، وقد اضطرت سفن الأسطول الروسي ، بقيادة رجستهفسكي إلى تجنب الملاحه عبر قناة السويس ، أي تجنب الطريق القصير الموصل إلى الشرق الأقصى ، والتوجه بالقوة الرئيسية عن طريق ما حول إفريقيا . وقد وقع حادث مماثل لذلك سنة ١٨٩٨ خلال الحرب الأسبانية — الأمريكية ، إذ فشلت السفن الحربية الأسبانية في الوصول إلى وجهتها في الوقت المناسب ، وذلك بسبب أن إنجلترا عطلت — بالتواطئ مع شركة القناة — تزويد تلك السفن بالوقود .

وفي الوقت ذاته ، كان النص الوارد بإحدى مواد الاتفاقية ، والخاص بعدم جواز عقد اتفاقات دولية خاصة بقناة السويس ، تحل محل الاتفاقية ، بنية التمتع بأي امتياز أو مزايا خاصة في القناة ، يؤدي دوراً ذا أهمية خاصة بالنسبة لإنجلترا . فنظراً إلى الوضع المتميز الذي كانت تتمتع إنجلترا به في منطقة القناة منذ سنة ١٨٨٢ ، فإن ذلك النص لم يترك أي مجال لاحترام مبدأ المساواة . وفي الوقت ذاته استفادت إنجلترا استفادة عملية من المعنى السياسي للنص الخاص بالمساواة ، إذ أعطى النص المذكور صفة قانونية فعلية للوضع الذي كان قائماً بالفعل في مصر في تلك الفترة وهي التي اشتهرت في التاريخ السياسي بالتعبير المعروف وهو : «الحديوي يملك وإنجلترا تحكم» . وهذا بالإضافة إلى أن ذلك النص كان يعطى إنجلترا ضماناً بعدم إبرام

اتفاقيات خاصة بالقناة بين الدول الأخرى ، وكان يطلق لها الحرية ويعطيها الصدارة في مجال النهب والسلب الاستعماري في مصر . وأخيراً ، فقد كان هذا النص يعطي صفة قانونية لأعمال النهب التي كانت تقوم بها شركة قناة السويس . وبعبارة أخرى ، فقد أدى هذا النص إلى إسباغ صفة قانونية على استغلال القناة بواسطة عدد محدود من المساهمين ، بغية تحقيق أرباح ضخمة حرمت منها مصر صاحبة القناة ، كما حرمت منها الدول الأخرى غير الممثلة في الشركة . بل إن هذا النص وضع لتسهيل إثراء الاستعماريين على حساب مصر ، وعن طريق إهدار حقوق ومصالح الدول الأخرى . وقد تلاقت مصالح التنافسين الرئيسيين من الاحتكاريين الإنجليز والفرنسيين المالكين لأكبر نسبة من أسهم شركة القناة في تلك المسألة . وكان هؤلاء الاحتكاريون يوجهون اهتمامهم إلى مصالحهم الذاتية ، لا إلى نصوص الاتفاقية التي كانت تنتهكها شركة القناة . ولا بد من الاعتراف بأن ممثلي الرأسمال الاحتكاري كانوا منطقيين مع أنفسهم في هذه المسألة ، فإن موضوع النشاط الحقيقي لشركة القناة لم يثر طوال المائة سنة التي انقضت من إنشاء الشركة إلى يوم التأميم ، ولم يبق لممثلي الرأسمال الاحتكاري — بعد تأميم القناة — إلا التظاهر بمظهر « المعتدى عليهم » . وكذلك كانت إنجلترا منطقيّة مع نفسها ، فقد استفادت من مكانة السيطرة التي كانت تتمتع بها في مصر ، لتجنب ذلك النص المفيد ، وسعت في كل مناسبة سانحة إلى توطيد مركزها في قناة السويس ، وقد تم لها ذلك لأول مرة بمناسبة إبرام معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ . فبمقتضى معاهدة فرساي ، استولت إنجلترا على حقوق السيادة التي كانت تتمتع بها تركيا في قناة السويس ، مستندة في ذلك إلى حق الوراثة ، وهو الحق الذي جرد مبدأ المساواة من كل معنى . وتكرر هذا الحادث سنة ١٩٣٦ ، فقد فرضت إنجلترا — وهي مستندة

إلى قوة جيوشها — اتفاقية دولية على مصر فيها إذلال للأخيرة . وقد أسبغت هذه الاتفاقية صفة قانونية على الحقوق الخاصة والمتميزة لـإنجلترا في منطقة القناة ، وبذلك قضت على آخر وهم من أوهم مبدأ المساواة المنصوص عليه في اتفاقية القسطنطينية .

وسهلت القرارات الخاصة بضمان احترام نصوص اتفاقية القسطنطينية ، لـإنجلترا تطبيق نصوص تلك الاتفاقية بما يتفق مع « وجهة النظر الذاتية » الخاصة بها . فإن الحق القانوني للإشراف على القناة كان حق مصر ، ولكنه نظراً للاحتلال الإنجليزي فقد كان هذا الحق يعود بالفعل لـإنجلترا . ويتضح من التاريخ الطويل للاحتلال الإنجليزي لمصر أن الاستعماريين الإنجليز كانوا يدركون تماماً معنى « الالتزامات » المترتبة على حق الإشراف ، فهم يدافعون حتى الآن عما يذهبون إليه من أن المصريين « غير قادرين » على حماية قناة السويس ، ويتعاملون عن الحقيقة وهي أن هذه الفكرة قد فات أوانها منذ زمن طويل . وإذا عدنا إلى التاريخ تبين لنا أن الإنجليز هم الذين كانوا يلحون في إعطاء مصر حق ضمان تنفيذ الاتفاقية . وبالإضافة إلى ذلك « دافع » ممثلو الإنجليز بحرارة عن حقوق الحكومة المصرية في مؤتمر باريس ، واستخدموا في ذلك « الدافع » الحجج نفسها التي يستخدمونها الآن بالاشتراك مع حلفائهم وخاصة في مؤتمر لندن ، وذلك لمعارضة تلك الحقوق المصرية نفسها التي « دافعوا » عنها من قبل . إن ممثلي إنجلترا يدافعون الآن عن مبدأ كانوا يرفضونه من قبل ، بل وكانوا يبذلون كل المستطاع لرفضه . وهذا المبدأ هو « الضمان الدولي » المزعوم للملاح في القناة . لقد كانت اتفاقية القسطنطينية ، في النص الخاص بذكره هذا الضمان ، « مندوب الدول » الموقعة على الاتفاقية بواجب مراقبة تنفيذها ، ولكن إنجلترا اجتهدت إلى أقصى حد لكي تبقى هذه « اللجنة الدولية » المقترحة « مؤسسة ولدت ميتة » . وكانت الاتفاقية تقضي بأن يجتمع

المندوبون الدبلوماسيون مرة كل عام في القاهرة، وفي كل مناسبة تتعرض فيها سلامة القناة وحرية المرور فيها لتهديد ما ، ولكن نشاط المندوبين اقتصر على تتبع « أحوال العمل » ، وعلى تقديم تقرير إلى الحكومة المصرية عند اللزوم ، حتي تتخذ تلك الحكومة ما تقرر من إجراءات .

ولكن على الرغم من أن هذه « اللجنة الدولية » كانت مجردة من جميع الحقوق والسلطات ، وأن نشاطها كان يقف عند حد مجرد سرد الوقائع ، فإنها كانت تضيق انجلترا ؛ حتي أن تلك الأخيرة قد بذلت أقصى جهودها لشل نشاط تلك اللجنة ، وذلك بفضل مادة تم الاتفاق عليها عند توقيع الاتفاقية وهي تنص على ما يلي : « يجري تنفيذ نصوص الاتفاقية في حدود التلازم مع الحالة الواقعية ومع السلطة الزمنية والاستثناءات في مصر ، وفي النطاق الذي لا يحد من حرية عمل الحكومة الانجليزية أثناء احتلال قوات بريطانيا العظمى المسلحة لمصر » . ونظراً لهذا الموقف فإن مسألة « الضمان الدولي » لم تعد ذات شأن . ولم يبلغ الانجليز الماد المذكورة إلا سنة ١٩٠٤ ، وذلك في التصريح الانجليزي - الفرنسي الصادر في ١٨ أبريل من تلك السنة ، حيث أعلنت الحكومة البريطانية - بصفة نهائية - موافقتها على اتفاقية ١٨٨٨ . ومع هذا فقد رفضت انجلترا في ذلك التصريح نفسه ( راجع المادة السادسة ) الاعتراف بسلطة المراقبة للمندوبين الدبلوماسيين في القاهرة ؛ وأعلنت من جانب واحد وقف أعمالهم ، التي تجرى وفقاً لقرارات اتفاقية القسطنطينية وبالإضافة ، إلى ذلك ، لم تفلق انجلترا مطلقاً ، طوال مدة السبعين سنة التي كانت تسيطر خلالها على قناة السويس ، من عدم توافر تلك الضمانات التي يطالب بها الآن الاحتكاريون الانجليز وحلفاؤهم بأعلى صوت . إدار أقوى « ضمان » للمصالح الدولية ، كان في رأي انجلترا ، وجود الجديش البريطاني في مصر .

وأخيراً ، فإن المادة العاشرة من اتفاقية القسطنطينية ، كانت تساعد إنجلترا على السيطرة على القناة ، إذ تسمح تلك المادة بمخالفة قرارات الاتفاقية الخاصة بحرية الملاحة ، وذلك لأسباب تتعلق بصيانة «الأمن العام» . وبما أن معنى مثل هذا «الأمن» في قاموس الاستعماريين معروف جيداً ، فلا داعي لأن تتكلم عنه أكثر من ذلك . ولكن هناك شيء واحد له أهميته في هذا الصدد ، فبعد أن وقع الاحتكاريون اتفاقية ١٨٨٨ وجدوا — في سبيل حماية مصالحهم الذاتية — لغة مشتركة في اتفاقهم الاستعماري ضد الشعب المصري . فالاحتكاريون يقدمون دائماً المصالح المشتركة بينهم ، وهي مصالح الطبقة التي ينتمون إليها ومصالح الملكية الفردية ، وكان معنى مثل هذه المصالح ، في مؤتمر باريس ، مكافحة الحركة التحررية للجماهير الوطنية في مصر وفي بلاد أخرى من بلاد الشرق . فقد وضع الاستعماريون في حسابهم أن القوات الإنجليزية المربطة في منطقة القناة ، يمكن استخدامها ضد تلك الجماهير الوطنية ، وقد بررت إنجلترا هذه الآمال — بشكل خاص — بمحاربتها للشعب المصري ، ولم يكن من المصادفات أن إنجلترا قد ردت على عمل عادل قام به الشعب المصري بالعدوان . إذ حولت منطقة القناة إلى مسرح للعمليات الحربية ، تلك العمليات التي قبلتها الصحافة الاستعمارية بالصمت ؛ على أساس أنها «قانونية» بينما كانت تلك العمليات انتهاكا صريحاً لاتفاقية القسطنطينية . وقد استطاعت إنجلترا أن تدخل على الاتفاقية تلك القرارات ، التي استخدمها الاستعماريون الأنجليز فيما بعد كستار قانوني لسيطرتهم على قناة السويس . وتمكن الأنجليز من إدخال تلك القرارات بفضل ترابط المصالح الاستعمارية ، وبسبب المنازعات الداخلية بين الاستعماريين حول اتفاقية ١٨٨٨ .

وبرهنت الخبرة الطويلة لاستخدام قناة السويس ، على ضرورة تعديل اتفاقية ١٨٨٨ ، وتصحيح النقائص والثغرات التي فيها . كما أن الثغرات

الهامية في مصير قناة السويس وفي حياة البلد الذي يملك القناة ، والتغيرات التاريخية التي وقعت في المجال الدولي ، تحتم بدورها قيام اتفاقية جديدة بشأن قناة السويس ، تتفق والظروف الجديدة وروح العصر .

لقد اتضح أن اتفاقية ١٨٨٨ كانت نتيجة مساومة بين اللصوص الاستعماريين في تنازعهم حول ممر بحري هام ، ولم تغير هذه الاتفاقية — لما فيها من نقائص وظروف الاحتلال الإنجليزي — من الوضع الذي كان قائماً في القناة عند توقيعها الاتفاقية ، فقد ظلت قناة السويس — كما كانت من قبل — في أيدي الانجليز ، وكانت الدول الأخرى مضطرة إلى قبول كل ما يناسب المصالح الإنجليزية . وتتضح الحالة في القناة في تلك الفترة من خلال مادة أدخلتها إنجلترا عند توقيع اتفاقية ١٨٨٨ ، والتي أجلت تلك المادة البدء في نفاذ الاتفاقية إلى وقت « أكثر ملاءمة » للاستعماريين الانجليز ، وكان لا بد من الانتظار مدة ١٦ سنة قبل بدء نفاذ الاتفاقية .

وساعد استمرار سيطرة إنجلترا على قناة السويس ، بالرغم من اتفاقية القسطنطينية ، على تحويل القناة ، إلى موضوع يثير المزيد من المنازعات الاستعمارية .

فقد زاد التنافس حدة بين المتنافسين الرئيسيين في مصر ، وهما إنجلترا وفرنسا ، منذ سنة ١٨٩٨ . عندما وقع حادث فاشودة ، حتي أصبحت إنجلترا في ذلك الوقت « وهي تفصلها شعرة عن الحرب مع فرنسا » ، على حد تعبير لينين . واستمر هذا التنافس طوال السنوات التالية حتي تم توقيع الاتفاق الانجليزي - الفرنسي سنة ١٩٠٤ ، وأسبغ ذلك الاتفاق صفة « قانونية » على الاحتلال الإنجليزي لمصر وقناة السويس ، وهو الاحتلال الذي كان يعتبر مؤقتاً حتي ذلك الحين ، وكانت الهدية التي تلقاها فرنسا — نظير ذلك — هي مرا كش . وقد وصف لينين — بايجاز ووضوح —

طبيعة وأسباب ذلك الوفاق الودى بين متنافسين مشهورين بقوله : «إنهما يستعدان لحرب ضد ألمانيا» .

واحتدت المنازعات الاستعمارية حول قناة السويس فى خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، عندما أغرت فكرة السيطرة على القناة الاستعماريين الألمان ، إذ كانت ألمانيا توحى وتوجه هجمات الجيش التركى على قناة السويس خلال تلك الحرب ، وكانت ألمانيا تنظر إلى الجيش التركى على أنه «طفلها» كما أن اتفاقية القسطنطينية لم تكن أكثر من قصاصة من الورق ، فى نظر الاستعماريين الألمان وفى نظر أعدائهم على حد سواء . واتهمز إنجلترا فرصة الحرب فأعلنت حمايتها على مصر سنة ١٩١٤ ، وذلك لتوطيد مركزها فى قناة السويس .

وتصادمت مصالح إنجلترا وإيطاليا فى قناة السويس تصادما عنيفا فى فترة سنوات ١٩٣٠ ، وقامت إيطاليا الفاشستية — فى سبيل طرد الانجليز من منطقة القناة — بعمليات حرية واسعة فى المواقع الأمامية المؤدية إلى مصر ، واستغل الاحتكاريون الانجليز خطر العدوان الإيطالى الفاشستي ، فاتخذوا منه مبررا لفرض معاهدة على الحكومة المصرية ، وهى معاهدة تتصف بالإذلال لمصر ، وقد ظلت سارية لمدة ١٥ سنة . ودعمت تلك المعاهدة الانجليزية — المصرية المبرمة سنة ١٩٣٦ مركز الانجليز فى قناة السويس .

وكانت قناة السويس — خلال الحرب العالمية — الثانية هدفا من أهداف الألمان الفاشيين الذين كانوا يرمون إلى تعزيز نفوذهم فى منطقة القناة إذ كانوا يربطون بين الاستيلاء على القناة وبين خطط عدوانية بعيدة المدى . وخلفت التغييرات الكبيرة التى حدثت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مرحلة هامة فى تاريخ قناة السويس ، وهى مرحلة انتقال القناة إلى أيدي مالكها الأصلى ، وهو الشعب المصرى، وهى — إلى جانب ذلك — مرحلة خلافات استعمارية خطيرة ، إذ أصبح المنافس الجديد لإنجلترا فى القناة هو

الولايات المتحدة الأمريكية ، ووجهت الأخيرة جهودها  
الأسواق الرأسمالية ومناطق النفوذ .

ومع ذلك ، فقد اتصف التنارع الانجليزى — إذ  
السويس فى فترة ما بعد الحرب ، بصفة جديدة مميزة ، ود  
وجه التخصيص عندما يصبح الموضوع موضوع تأميم الق  
وفى خلال تنازعهما حول قناة السويس ، تدافع  
المتحدة ، من ناحية ، عن مصالحهما الخاصة ، وتحددان  
وفى نطاق مصالحهما المشتركة ، ضد الشعب المصرى وضد  
الشرقين الأدنى والأوسط التى تناضل فى سبيل تدعيم ا  
وقد حاولت الولايات المتحدة — رغبة منها فى السيطرة  
أن تخرج الانجليز من منطقة القناة ، كما بدا أن ذ  
تحل محل الانجليز ، ولكنها كانت تؤيد إنجلترا كما  
قناة السويس إلى أيدي مالكيها الحقيقي .. مصر. وأيد  
البريطانيين ضد مصر فى مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ لئلا  
وذلك عندما طالبت مصر بإنهاء السيطرة الأجنبية على  
وظهرت هذه السياسة التى تتبعها الولايات المتح  
عند ما حاول الشعب المصرى — فى تصميم — أن يسه  
وذلك فى سنة ١٩٥١ ، إذ أيد الاحتكاريون الأمريكة  
كاملا فى ذلك الوقت ، ووصفوا مطالب الشعب المد  
« ذهب إلى أبعد مما ينبغى » .

وكتبت صحيفة أمريكية فى تلك الفترة تقول : « إ  
تطالب بأن يسحب الإنجليز جميع قواتهم من قناة السو  
إلى أن منطقة القناة هى المركز الرئيسى للقيادة والتوير  
الأوسط بأسره ، فإن مطلب الحكومة المصرية ، قد



إلى أبعد مما ينبغي » .

وفي عام ١٩٥١ . اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا مشروع إنشاء ما اسمته « قيادة الشرق الأوسط » ، وذلك رغبة من الدولتين في إبقاء قناة السويس تحت سيطرة الاستعماريين . وكان ذلك المشروع يقضى بأن ترابط القوات الأمريكية مع القوات الإنجليزية في منطقة القناة ، مما كان يؤدي إلى سيطرة الاحتكاريين الإنجليز والأمريكيين سيطرة كاملة على الشرقين الأدنى والأوسط . ولكن دول الشرقين الأدنى والأوسط ، وفي مقدمتها مصر ، رفضت بحزم هذا المشروع العدواني الذي كان يهدف إلى حرمانها من حريتها الوطنية .

واتفق الأمريكيون مع إنجلترا في العمل على تحقيق الأهداف الاستعمارية ، واتهم الأمريكيون كل فرصة سانحة ، واتخذوا جميع التدابير الممكنة في سبيل أن يرفرف العلم الأمريكي على القاعدة الإنجليزية في منطقة القناة ، واتضح هذا الجانب من السياسة الأمريكية فيما يختص « بشبكة القناة » في فترة ترويق الاتفاقية الإنجليزية — المصرية سنة ١٩٥٤ . وقد كشف الاحتكاريون الأمريكيون . بسرعة ووضوح ، الهدف من ضغط الولايات المتحدة الأمريكية على إنجلترا ، فكتبت صحيفة « نيويورك تايمز » تقول : « إن جلاء حامية السويس ، هو حالة أخرى من الحالات التي يخرج فيها إنجليز . . . ويدخل الأمريكيون » .

واستمر الاحتكاريون الأمريكيون في السعي لتحقيق هدفهم ، وهو الدخول إلى منطقة قناة السويس ، فاقترحوا على مصر كل نوع من أنواع المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، وذلك في اليوم التالي مباشرة لتوقيع اتفاقية سنة ١٩٥٤ بين الإنجليز والمصريين .

ولكن جميع التدابير الاستعمارية الخاصة بقناة السويس قد فشلت ، وظهر هذا الفشل أول ما ظهر عندما رفضت مصر — في حزم —

الاشتراك في حلف بغداد العسكري ، واتخذت موقف الحياد الإيجابي . وفشل الاستعماريون مرة أخرى ، عندما تم توقيع الاتفاق المصري — التشيكوسلوفاكي ، وهو الاتفاق الذي زود مصر بالأسلحة والمواد الحربية اللازمة لجيشها ، مما جعل مصر قادرة على أن تناضل بنجاح في سبيل حريتها واستقلالها . وكذلك فشلت محاولات تأجيل جلاء القوات الانجليزية عن منطقة القناة ، وهو الجلاء الذي كان منصوفاً على مدته في اتفاقية سنة ١٩٥٤ ، وبذلت تلك المحاولات الفاشلة عندما رفضت مصر حلف بغداد .

ولكن شركة قناة السويس كانت لا تزال هناك ، وكانت لا تزال « دولة داخل الدولة » ، وهي التي نتجت عن الاحتلال الإنجليزي ، والتي قدمت خدمات للاستعماريين أكثر من مرة . وفشلت تدابير الاستعماريين مرة أخرى عندما أمتت الحكومة المصرية شركة قناة السويس .

وهذا هو ما يفسر رد فعل الدول الغربية الذي يشير الالتهام . فقد ضغطت الدول الغربية الثلاث ضغطاً قوياً على مصر متجاهلة شرعية تصرفات الحكومة المصرية ذات السيادة نحو ملكية موجودة في أراضيها ، وفرضت الدول الغربية عقوبات اقتصادية ضد الحكومة المصرية ، وحشدت إنجلترا وفرنسا . بالإضافة إلى ذلك ، قواتهما البحرية بالقرب من قناة السويس ، وأعلنتا حالة الطوارئ ، واستدعتا الاحتياطى للخدمة العسكرية ، وجهزتا قوات المظلات . . . وهكذا .

وتضامن الاختكاريون في أعمالهم الموجهة ضد الأمة المصرية ، فأيدت الولايات المتحدة الأمريكية . بجماعة ، « الحلفاء » الانجليز والفرنسيين . والسبب الحقيقي لذلك التضامن الحالي بين الانجليز والأمريكيين ضد الأمة المصرية ، هو رغبة الدول الغربية في تخويف شعب مصر وسائر الشعوب وإرغامها على النخلى عن نضالها في سبيل استقلالها ونهضتها الوطنية.

وكتبت الصحيفة الأمريكية « نيويورك هيرالد تريبون » في عددها الصادر يوم ٨ أغسطس سنة ١٩٥٦ تقول : « إن لم يلتمن عبد الناصر درساً ، فإن كل مصالح الغرب الهامة ستكون — حتماً وبلا أمل — في خطر » . وشرحت الصحيفة الإنجليزية « ديلي هيرالد » ، في الوقت ذاته ، معنى تلك المصالح الهامة ، فكتبت تقول : « لا تزال قناة السويس هي رمز سلطة ونفوذ الغرب في الشرق الأوسط » .

وأعربت الصحافة الاحتكارية عن قلقها بالنسبة لمراكز الاستعماريين في بلدان الخليج الفارسي ، حيث يخفى الاستعماريون أرباحاً طائلة عن طريق استغلال تلك البلاد وثرواتها الطبيعية ، فكتبت الصحيفة الإنجليزية « ديلي اكسبريس » تنبه إلى أنه : « في اللحظة التي يقبل فيها التأميم ، على أنه عمل مشروع في الشرق الأوسط ، فإن كل صناعة بترول تمتلكها الدول الغربية لن تكون في أمان ، وستعرض الممتلكات والاستثمارات الإنجليزية ، وهي التي تقدر بملايين الجنيهات ، لخطر نزع ملكيتها » .

وعبرت الصحيفة الفرنسية « ليموند » ، بالإخلاص نفسه عن مخاوف الغرب فقالت : « إن قناة السويس تمثل شيئاً آخر غير مجرد مصالح إحدى الشركات المساهمة أو مجرد مصالح أصحاب أسهم مالية محددة . إنها تمثل رمزاً . وإذا سقط هذا الرمز فإن السد سينهار ... وسيتعاقب التأميم تلو التأميم ، وستنهار جميع شركات البترول ، وسيكون ذلك آخر ضربة موجهة إلى مكانة الغرب » .

ودافعت الصحف الأمريكية عن وجهة نظر دوائرها الرسمية ، بهذه الروح نفسها .

إن مخاوف ما يصفه الاحتكاريون بأنه احتمال وقوع « انفجارات متوالية » ، تكشف سبب « إجماع » الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا في تصرفاتها ضد الأمة المصرية ، وهذا « الإجماع » يعني تكتل الاستعماريين

بغية المحافظة على امتيازاتهم الاستعمارية في الشرق ، وبغية وضع الأمة المصرية في حالة جديدة من التبعية ، وبغية السيطرة من جديد على قناة السويس . ولا يعنى أبداً تأييد الولايات المتحدة الأمريكية « لخلقها » أنها لا تحاول أن تبني أقصى فائدة ممكنة لحساب الاحتكارات الأمريكية من هذا النزاع ، وإنما تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية أن « أزمة قناة السويس » فرصة ملائمة لتعزيز مركزها في الشرقين الأدنى والأوسط . ولا تجد الصحافة الأمريكية أنه من الضروري أن تكتم هذا الجانب في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كتب أحد الصحفيين الأمريكيين ويدعى « آدمز » مقالا في صحيفة « نيويورك تايمز » قال فيه — بشكل واضح — أن تدخل الولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة إنما هو « لإبعاد إنجلترا وفرنسا عن الشرق الأدنى ، وتعزيز دور الولايات المتحدة الأمريكية في تلك المنطقة » .

ويرمى الاحتكاريون الأمريكيون إلى الاستفادة من « أزمة قناة السويس » للاستيلاء على موارد البترول التي يملكها منافسوهم الانجليز والفرنسيون . وصورت صحيفة « نيويورك تايمز » خطط الاغتصاب بالشكل الآتي : « إن لنا مصالح في الشرق الأوسط ، وهي مصالح تزيد — إذا حسبت قيمتها بالنقود — عن قيمة القناة زيادة مؤكدة » . ويفسر هذا القول الموقف الذي اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أحداث القناة إن الأمة المصرية عازمة عزمها أكيداً على أن تصمد أمام جميع أنواع الضغط الاستعماري ، حتى تنهى « مشكاة قناة السويس » التي اصطنعها الاحتكاريون لخدمة مصالحهم . وإن كل الإنسانية التقدمية تقف إلى جانب الأمة المصرية .

# الأمة المصرية تسترد حقوقها الكاملة في قناة السويس

قررت الحكومة المصرية إقامة تمثال عند مدخل قناة السويس لإحياء ذكرى الوطنيين الذين بذلوا حياتهم في النضال من أجل مصر المستقلة ذات السيادة ، وسيكون هذا التمثال رمزاً لاتتصار الأمة المصرية في استعادة ملكيتها الوطنية — قناة السويس ، استعادة لاربعة فيها .

لقد ظلت قناة السويس التي حضرتها وأنشأتها الأيدي العاملة المصرية ، والتي دفعت الحكومة المصرية تكاليفها ، تحت سيطرة الاستعماريين لنحو ثمانين سنة ، وكانت بذلك الإطار الرئيسى الذى جرى فيه الصراع من أجل تطور مصر في مرحلة هامة من مراحل تاريخ الأمة المصرية . ومن الصعب على المرء أن يصف آلام المصريين ، وأن يحدد النتائج المؤسية التي أصابت البلاد إثر الاحتلال الإنجليزي .

فقد اضطرت مصر ، وهى البلد ذو النيل الدافق الذى يروى فيها ثلاثة محاصيل في السنة ، والتي كانت في الماضى صومعة غلال منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى ، إلى أن تستورد القمح لكي توفر الخبز اللازم لها ، بينما كان رؤساليو لانكشاير ينجون الثروات من عرق الفلاح المصرى بعد أن جعلوا من مصر مزرعة للقطن تابعة لصناعة النسيج الرأسمالية .

بل ولم يكتف المحتلون بتلك الحالة . فقد وصف رحالة جغرافى روسى معروف ، هو ف . ي . فيوكوف ، ما كان يفعله الانجليز بمصر ، فى مقال بعنوان « ملاحظات على مصر المعاصرة » ، نشرته جريدة كانت تصدر فى موسكو فى أواخر القرن الماضى هى جريدة « الفكر الروسى » فقال إن الانجليز يصدرون أيضا من مصر الأرز والعدس والفول والسكر ، التى تعتبر فى الواقع المواد الغذائية الوحيدة للشعب المصرى ، فكانوا بذلك يحكمون عليه بحياة هى أقرب ماتكون إلى حياة المجاعة . وكتب ف . ي . فيوكوف ، بعد أن شاهد أعمال المحتل فى مصر ، يقول : « إن السيطرة الانجليزية أحالت حياة الفقراء فى مصر إلى حياة مريعة قاسية ، بينما يحصل المديرون الأجانب على مرتبات عالية وكبيرة جدا من الخزانة المصرية ، وهى مرتبات تتيح لهم أن يعيشوا فى رخاء وفى نفخة دون أن يروا بؤس الشعب » .

وفى الوقت ذاته ، أوقف المحتلون الانجليز كل تطور صناعى فى البلاد ، واول ٧٤ سنة من السيطرة الانجليزية فى مصر ، لم يجر إنشاء ولو مصنعا واحداً من مصانع المعادن أو من مصانع قطع غيار الآلات . ولا يزال السبد العالمى ، وهو مشروع ذو أهمية كبرى بالنسبة لمصر ، فى مرحلة التخطيط على الورق . وخلال سنى الاحتلال كانت الصورة النموذجية التى تنعكس عن مصر هى صورة البؤس القاسى ، والنسبة العالية من الوفيات ، والأمية العامة المنتشرة بين السكان ، ولا يزال هناك مثل متداول بين سكان مصر حتى الآن يقول : « إن لكل اثنين من المصريين ثلاثة أعين » ، وهو مثل يشهد على ماضى مصر المؤسى ، إذ من المعروف أن نسبة ٨٩ فى المائة من سكان مصر مصابون بالترخوما . وخلال سنى الاحتلال ، كانت مصر المثل التقليدى الذى يضرب على مدى انخفاض مستوى المعيشة ، وعلى مدى انتشار الفقر المدقع ، وعلى مدى ارتفاع نسبة الوفيات فى العالم ، كما

نوه بذلك سعد كامل ، مندوب مصر في المؤتمر الثاني لأنصار السلام .  
ولقد ظل الاحتكاريون الانجليز يتصرفون في مصر تصرفهم في بلد  
مستعمر ، وذلك حتى بعد أن قدموا « هدية » الاستقلال إلى الحكومة  
المصرية في سنة ١٩٢٣ . ولم يكن الاحتكاريون الانجليز يحترمون قوانين  
البلاد ، ونظراً إلى أنهم لم يحترموا التعليمات الصحية السارية في البلاد ،  
قد تسببت جيوش احتلالهم في انتشار وباء الكوليرا في مصر سنة ١٩٤٧ ،  
وهو وباء تسرب إلى البلاد عن طريق المعسكرات الانجليزية . وفي أثناء  
الحرب الأخيرة ، توسع الاحتلال الانجليزي في منطقة القناة حتى شمل جميع  
أنحاء مصر .

وبينا كانت قناة السويس مصيبة للشعب المصري ، فإنها كانت — على  
العكس من ذلك — بقرة حلب للاحتكارين الأجانب الذين فرضوا  
سيطرتهم الكاملة عليها .

فقد أصبحت شركة القناة ، المصرية رسمياً ، والتي أطلقت على نفسها  
لقب « العالمية » ، وسيلة للنهب والسلب للاحتكاريين . ولم يسرق الرأسماليون  
الأجانب الحكومة المصرية بتجريدتها من الأسهم التي كانت تملكها في  
الشركة فحسب ، بل إنهم سرقوا كذلك نسبة الخمسة عشر في المائة من  
الأرباح التي نص عقد الأمتياز على وجوب حصول الحكومة المصرية  
عليها ، إذ اضطرت الحكومة المصرية إلى بيعها إلى الرأسماليين  
الفرنسيين في سنة ١٨٩٠ . وقد ظلت مصر من ذلك الحين وإلى سنة  
١٩٣٧ ، لا تحصل على أى نصيب من أرباح شركة القناة الناتجة عن استغلال  
قناة السويس ، وفي سنة ١٩٣٧ ، وافقت الشركة على أن تدفع للحكومة  
المصرية مبلغاً لا يذكر مقداره ٣٠٠ ألف جنيه مصري سنوياً . ومرت  
اثنتي عشرة سنة قبل أن يزداد نصيب الحكومة المصرية من أرباح الشركة  
زيادة صغيرة ، إذ حصلت الحكومة المصرية بمقتضى اتفاق عقد سنة ١٩٤٧

على نسبة ٧ في المائة من الأرباح العامة للشركة ، بينما حصلت الشركة على كل الباقي من تلك الأرباح . وعلى مصر ، وهى صاحبة القناة الشريفة ، أن تدفع — فى الوقت ذاته — رسوم مرور سفنها بالقناة شأنها فى ذلك شأن البلاد الأخرى .

ولكن ، هل كانت الشركة ، وهى تسمى نفسها « العالمية » ، وتطالب مصر ببذل « تضحيات » فى سبيل المصالح « الدولية » تسعى إلى « توفير الضمان » لحملة الأسهم القدامى لكي يحصلوا على القيمة التى دفعوها فى تلك الأسهم ؟ إن الواقع ينفى ذلك ، لأن الخط البيانى لأرباح الشركة يثبت — سنة بعد سنة — أن تلك الأسهم تزداد قيمة فى بورصة الأوراق المالية . فلقد بلغت أرباح الشركة فى سنة ١٩٣٠ مبلغ ٣٥٠ مليون فرنك ذهب وهو ما يوازى تسعة أمثال تكاليف إنشاء القناة . وفى سنة ١٩٣٧ ، وعندما أصبحت الشركة « سخية » لأول مرة تجاه مصر وأعطتها ما لا يزيد على مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه مصرى ، كانت هى تحصل على ما هو أكبر من هذا المبلغ بكثير . وفى سنة ١٩٤٩ ، بلغ مجموع أرباح الشركة ٢٦ مليار فرنك فرنسى ، وفى سنة ١٩٥٥ بلغ مجموع أرباحها ٣٤٥٣٩ مليون فرنك حصلت مصر منها على مبلغ ١٠٩٢ مليون فرنك .

وبهذه الطريقة ، زادت أرباح حملة الأسهم ، حتى بلغت حصة كل سهم فى سنة ١٩٤٨ مبلغ ٦٠٠٠ فرنك ، زادت فى سنة ١٩٥٥ إلى مبلغ ١١٠٠٠ فرنك .

ولما كانت الحكومة الانجليزية تملك ٣٥٣٥٠٤ سهماً ، فإن أرباحها تصل إلى بلايين الفرنكات .

وبالإضافة إلى حصص الأرباح ، يحصل المساهمون على أنصبة أخرى تأتى اليهم من استثمار مختلف الاحتياطات ، ومن أمثلة ذلك أن النصيب الإضافى من الربح بلغ ١٤٢٩ فرنك فى سنة ١٩٥٠ عن كل سهم من أسهم



التأسيس ، وتبلغ احتياطات شركة القناة مبالغ كبيرة ، ويكفي للدلالة على ذلك أن الشركة حولت في سنة ١٩٥٥ مبلغ ٥٥٠٠ مليون فرنك إلى احتياطات مختلفة . وقد بلغ الاحتياطي في ميزانية الشركة سنة ١٩٥٥ مبلغ ٥٤ مليون جنيه استرليني ، وقد جمد هذا الاحتياطي مع المتوفرات حتى نهاية الامتياز في سنة ١٩٦٨ . وإلى جانب ذلك ، هناك جزء كبير من الأرباح مودع في البنوك باعتباره استثمارا طويل الأجل ، ويقدره المساهمون بمبلغ ٧٠ مليار فرنك في سنة ١٩٦٨ . ولهذا ، فليس من المستغرب إذن أن ترتفع أسعار أسهم شركة القناة وقيمتها الاسمية ٢٥٠ فرنك بدون توقف . لقد كان سعر السهم الواحد في البورصة سنة ١٨٧٥ ( وهي السنة التي اشترت فيها إنجلترا أسهم مصر ) ٦٧٤ فرنكا ، وأصبح في سنة ١٩٢٥ مبلغ ١٠٤٢٦ فرنكا ، وفي سنة ١٩٣٩ مبلغ ٦٨٤٩٥ فرنكا ، وفي سنة ١٩٤٤ مبلغ ٧٢٠٠٠ فرنك ، وفي سنة ١٩٥٦ مبلغ ٩٢٧٠٠ فرنك . ولكن ، ماهي الوسيلة التي استخدمتها الشركة للحصول على تلك الإيرادات الخيالية؟ إن تلك الوسيلة هي التي توضح الشكل الحقيقي « للنشاط العالمي » للشركة ، هذا النشاط الذي نتحدث عنه مخافة الاحتكاكين في الوقت الحاضر حديث الغضب والسخط .

إن المهمة الرئيسية لشركة القناة ، كما هو وارد في عقد الامتياز ، هي صيانة القناة وتوفير الظروف المناسبة لاستغلالها ، ومعنى هذا ، أنه يجب استغلال جميع الإيرادات المتحصلة من رسوم الملاحة في قناة السويس ، إلى أقصى حد ، في تمويل الأعمال التقنية اللازمة لتحسين القناة . ولكن ما أنفقته الشركة في ذلك السبيل لم يكن سوى جزء ضئيل من إيراداتها ، بينما أهملت الشركة أعمال تحسين القناة إهمالا فاحشا بسبب اقتراب موعد انتهاء الامتياز . وبينما بلغت مصروفات الشركة على أعمال تحسين القناة حتى الحرب العالمية الأولى نسبة ثلث الإيرادات ، لم تزد تلك المصروفات

عقب الحرب العالمية الثانية على نسبة عشر الإيرادات . ومن الأمثلة على ذلك أن شركة القناة اعتمدت ، في سنة ١٩٥٥ ، مبلغ ٣ مليارات فرنك لأعمال التحسين في منطقة القناة ، بينما كانت إيراداتها في تلك السنة تبلغ ٣٤ مليار فرنك ، أى ما يعادل نسبة العشر أو أقل قليلا . وفي الوقت ذاته حصل المساهمون في تلك السنة على ربح صافى بمقداره ١٦,٥ مليار فرنك . ولنستشهد مثلا بما حدث بشأن تنفيذ البرنامج الثامن لأعمال تحسين قناة السويس ، وهو البرنامج الذى يتحدث عنه حتى الآن مساهموا الشركة السابقة ، والذى قدرت تكاليفه بمبلغ ١٦ مليون جنيه مصرى يجرى انفاقها خلال خمس سنوات . إن الشركة قد حصلت خلال السنوات الخمسة الماضية فقط على أرباح بلغت ٥٠٠ مليون دولار ( أى ١٧,٥ مليون جنيه مصرى ) ، ومعنى هذا ان تلك الأرباح تزيد على نفقات تحسين القناة بمقدار أحد عشر مثلا .

ولهذا ، فليس من المستغرب أن تكون القناة عند تأميمها في تلك الحالة السيئة التى خلفتها الشركة وراءها . لقد كانت الشركة معنية — بآدى ذى بدء — بتحصيل الأرباح ، ولم تكن تهتم إلا قليلا بالقيام بواجباتها ومهمتها الحقيقية . ومن أمثلة ذلك أن الشركة لم تقم — طوال وجودها الذى استمر ما يقرب من مائة سنة — بتنفيذ الأعمال الواجب تنفيذها لتحويل بحيرة التمساح بالقرب من الإسماعيلية إلى ميناء بحرى ، ولم تقم بأعمال تحسين القناة في المسافة بين بورسعيد والسويس بحيث تصبح القناة ممرًا بحريا للسفن الكبيرة الحديثة . وتفاعست الشركة أيضا في أعمال تحسين ميناء بورسعيد حتى تواجه تلك الميناء مطالب التجارة العابرة ، وظل على السفن أن تفرغ شحناتها وتحملها وهى راسية في عرض البحر بسبب عدم وجود أرصفة في ميناء بورسعيد .

ولكن ، ما الذى أدى إلى تمتع الشركة بحق التصرف في القناة وفقا

لتقديراتها الداتية فحسب ؟ إن الاحتكاريين أنفسهم لم يعارضوا حتى الآن حق مصر ذات السيادة في استرجاع ما تملكه في أراضيها ، وإنما عارضوا تطبيق ذلك الحق على الشركة المؤممة بسبب نشاطها العام الدولي . غير أنه من المعروف أن نشاط الشركة لا يصدر عن لا شيء ، وإنما يجب أن يصدر عن حق واجب الاحترام ، ولم يكن للشركة أبداً حق القيام بنشاط عام دولي . ولا يوجد نص واحد في الوثائق المتعلقة بإنشاء شركة قناة السويس أو بعملها ، يخططها حق القيام « بخدمات دولية » معينة ، بل وإن الأمر على عكس ذلك ، إذ تنص اتفاقات الامتياز المبرمة في سنوات ١٨٥٤ و ١٨٥٦ و ١٨٦٦ على أن الشركة يجرى إنشاؤها باعتبارها شركة مساهمة مصرية ، ذات هدف محدد هو إنشاء واستغلال قناة السويس ، وتتمتع بالشروط التجارية المعتادة ، كما أن ملكية مصر لأغلبية أسهم الشركة وتمتعها لذلك بميزة السيطرة المالية عند إنشاء الشركة يوضح المعنى المقصود بلفظ « العالمية » الوارد في اسم الشركة . أما الصفة التجارية البحتة للشركة ، فيؤكدها نشاط تلك الشركة بغية الحصول على الأرباح من تلك العملية ، كما أن حرية بيع وشراء الأسهم المتداولة بين المساهمين تشهد أيضاً بتلك الصفة التجارية . ولقد جرت عمليات عديدة في بيع وشراء أسهم شركة القناة : ففي سنة ١٨٧٥ ، اشترت إنجلترا أسهم مصر في الشركة ، وفي سنة ١٨٩٠ اشترت « الشركة المدنية » الفرنسية نسبة الخمسة عشر في المائة من الأرباح المملوكة لمصر . وفي ذلك الوقت أيضاً ، تقلت امبراطورة فرنسا ما تملكه من أسهم شركة القناة إلى البابا ، وفي سنة ١٩٤٨ ، انتقلت أسهم البابا من الفاتيكان إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ولقد نظرت الدول الثلاث وهي إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى تلك العمليات على أنها صفقات بيع وشراء عادية لاعلاقة بينها وبين أى وضع قانونى أو دولى لقناة السويس . ولم يعترف بصفة « الدولية » لشركة القناة إلا في حالة واحدة ، وهي حالة

التزام الشركة بعدم خرق مبدأ المساواة والحرية للملاحة في قناة السويس ، وهو التزام منصوص عليه في عقد الامتياز الممنوح من قبل الحكومة المصرية . ومما له مغزى خاص في هذا الصدد أن الاحتكاريين الانجليز — الفرنسيين — الأمريكيين تناسوا تلك الحقيقة التاريخية ، في الوقت الذي يصرخون فيه حول حماية حرية الملاحة في قناة السويس .

ولا تذكر اتفاقية ١٨٨٨ كذلك ، أى شىء عن نشاط عام دولى لشركة القناة ، بل وإن المادة الرابعة عشر من تلك الاتفاقية تنص — على عكس ذلك — على أنه في حالة توقف نشاط الشركة ، تظل مبادئ حرية الملاحة في القناة كما هي . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مراجعة اتفاقية ١٨٨٨ تكشف عن أن الشركة كانت تتصرف على عكس النصوص الواردة في تلك الاتفاقية ، أى أن الشركة كانت تخرق القانون الدولى . فمُنذ تحولت الشركة إلى « مملكة انجليزية صغيرة في قناة السويس » — على حد تعبير إحدى الصحف الأجنبية — فإنها لم تخرق مبادئ المساواة في الملاحة عبر القناة بحسب ، وإنما خرقت أيضا الحقوق الواردة في اتفاقية ١٨٨٨ والخاصة بالحكومة المصرية ، بل وإن لجنة « المندوبين الدبلوماسيين » التى نصت عليها تلك الاتفاقية لم تتألف أبداً . وتلك هى الحقوق والواجبات التى تتحدث عنها الدول الغربية « لتدلل » بها على صفة « النشاط الدولى » للشركة السابقة ، وهى صفة لم تكن لها فى يوم من الأيام .

إن الصفة «الدولية» لشركة قناة السويس إنما أسبغها عليها حملة أسهمها وجهازها الإدارى الرئيسى وهو مجلس الادارة . لقد كان مجلس إدارة شركة القناة عندما تم تأميمها مؤلفا من ٩ أعضاء انجليز و ١٧ عضوا فرنسا و ٥ أعضاء مصريين وعضو هولندى وعضو أمريكي ، ولكن حتى تكوين ذلك المجلس قد تم بطريقة عسفية . ففي سنة ١٨٨٩ مثلا انضم ممثل لألمانيا بسبب ما قيل عن « كفاءاته الجديدة » حينئذ ، وفى سنة ١٩١٧ عزل ممثل

روسيا «أوتوماتيكيا» . وفي سنة ١٩٣٧ ، رفض تمثيل إيطاليا في مجلس الإدارة على الرغم من أنها كانت تمثل في ذلك الوقت ربع إيرادات الشركة من الملاحه في القناة ، «وبرر» مديرو الشركة . ذلك الرفض بقولهم أن الشركة ذات طابع «تجاري» بحت ، وأن مجلس الإدارة يجب ألا يمثل إلا البلاد التي لها مصالح مالية فقط في الشركة ، ولكن ذلك التبرير لم يمنع الشركة من أن تصرف ، في سنة ١٩٤٨ تصرفا عكسيا ، إذ ضمت إلى مجلس إدارتها ممثلا للولايات المتحدة الأمريكية هو مستر بنكني تالك ، «وبرر» الشركة ذلك الصرف بما «لولايات المتحدة من نصيب كبير في الملاحه في قناة السويس» ، وبما لمستر تالك من «كفاءات عديدة» ، وبما له من «خبرة في المسائل الدولية ومعرفة بمشاكل الشرق الأوسط» .

إن شركة قناة السويس قد استغلت صفة «العالية» الموجودة في اسمها ، استغلالا واسعا لنطاق ضد الحكومة المصرية ، واعتمدت في ذلك على حراب القوات الانجليزية ، واتخذت موقف الاستقلال عن مصر ، ورفضت الخضوع لقوانين البلاد .

ومن الأمثلة على ذلك ، أن الشركة رفضت في سنة ١٩٤٧ ، الخضوع للقانون المصري الخاص بالشركات المساهمة المصرية ، وهو القانون الذي أوصى بتمصير تلك الشركات ، والذي قضى بأن يكون للمصريين نسبة تتفاوت بين ٤٠ و ٧٠ في المائة في مناصب ومجالس إدارات كل شركة مساهمة مؤسسة في مصر ، كما قضى بأن تدفع كل شركة مساهمة ضريبة مقدارها ٣٠٠٠ جنيه للحكومة المصرية .

وقد رفضت شركة قناة السويس ، الخضوع لذلك القانون ، مبررة ذلك بإثارة صفتها «الدولية» المزعومة التي قالت أنها تعطيها وضعها خاصا . ومع ذلك فلم تتوان الشركة ، رغم مزاعمها «الدولية» ، من أن يستغل «أصلها المصري» ضد مصر .

وفي سنة ١٩٣٩ ، اعتمدت الشركة على القانون المصري الخاص بتسويات عقود الدفع على أساس الذهب ، ودفعت لدايتها ، ومعظمهم من المصريين ، بأوراق النقد ، وحقت بذلك ربحاً كبيراً من تلك العملية . ونوهت الشركة في مذكراتها التي قدمتها إلى محكمة الاسكندرية المختلطة ، وهي المحكمة التي كانت تحكم في النزاع القائم بين الشركة ودائيتها المصريين ؛ بأن الشركة ذات أصل قانوني خاضع للقانون المصري ؛ وبأن جنسيتها وطابعها هما جنسية وطابع مصري بحت . وهكذا كانت الشركة تتلاعب بمصريتها لتبرر وجودها تجاه الدول الأخرى من ناحية ، ولتبرر إثراء خزانها بأموال المصريين تجاه مصر .

ولكن السؤال هو : لحساب من كانت تعمل الشركة ؟ إن أحداثاً فاضحة تجيب على هذا التساؤل ، ومن هذه الأحداث أن الشركة بررت تأخرها في الدفع سنة ١٩٤١ بأنها اعتمدت مبالغ كبيرة لإنشاء خط حديدي عسكري بين الإسماعيلية والسويس .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وضعت الشركة عدداً كبيراً من مبانيها ومنشآتها تحت تصرف القوات البرية والبحرية البريطانية ، ووضعت جميع ورشها في بورسعيد تحت الإدارة المباشرة للأميرالية البريطانية ، وقد ظلت تلك الورش ، خلال خمس سنوات متوالية ، تعمل ليلاً ونهاراً لسد احتياجات البحرية البريطانية فحسب .

وفي سنة ١٩٤٩ ، قررت الجمعية العمومية لمساهمي شركة قناة السويس تخفيض رسوم المرور ، فكتبت جريدة « جورنال دي مارين » الفرنسية تقول : « إن المجلس العام البريطاني للملاحة البحرية احتج احتجاجاً شديداً على ذلك الإجراء ، وأيده في ذلك المقاولون الأمريكيون تأييداً تاماً » ، ونوهت الجريدة بأن الاحتكاريين الإنجليز والأمريكيين « يخشون أن يؤدي تخفيض رسوم المرور في قناة السويس ، إلى تخفيض أسعار البترول » ،

ومن ثمت ، فلم ينفذ قرار ، تخفيض رسوم المرور .

وفي سنة ١٩٥٠ ، أى في فترة حرب كوريا ، قامت الشركة بمناسبة السنة الثانية والثمانين من تاريخ نشأتها ، بتعديل رسوم المرور للسفن العابرة ، وتقول جريدة « لويديز ليست » الإنجليزية — في هذا الصدد — أن تجار الأسلحة الانجليز والأمريكيين اهتموا اهتماماً خاصاً بذلك الإجراء . وحصل احتكاريو الولايات المتحدة ، بهذه الطريقة ، على تخفيض محسوس في تكاليف نقل الكميات الكبيرة من الأسلحة المتجهة نحو الشرق الأقصى .

وفي سنة ١٩٥١ ، وبينما كان المحتلون الانجليز يشنون حرباً غير معلنة ضد الأمة المصرية ، رفضت الشركة أن تمنع مرشديها عن إرشاد السفن التي تحمل القوات البريطانية إلى مصر ، ووصفت ذلك الطلب بأنه طلب « مبالغ فيه » ، فكانت بذلك بمثابة الحليف الحقيقي للمحتلين .

وليس هذا كل شيء ، وإعما هناك أيضاً حقيقة أن الشركة ساعدت الاستعماريين على عرقلة تطور مصر الاقتصادي ، وقد حدث ذلك — إلى حد معين — بقيام الشركة باستثمار أموالها خارج مصر ، ووفقاً لتعليمات المساهمين ، وقد رفضت تغيير خططها تلك ، حتى بعد أن أصبحت مصر جمهورية مستقلة ، وظالت متمسكة بموقفها حتى آخر يوم من أيام حياتها .

وبينما كان الاحتكاريون يملأون جيوبهم — بمساعدة الشركة — بالأرباح الخيالية التي يجنونها بفضل مصر ، كانت مصر مضطرة إلى الالتجاء إليهم للحصول على « مساعدة مالية » ، واستغل الاحتكاريون تلك « المساعدة » في زيادة أرباحهم أكثر فأكثر ، وفي فرض شروطهم السياسية على شكل « مساعدة » من نوع آخر ، وإن تاريخ الحوادث بين مصر والاحتكاريين الانجليز والأمريكيين بشأن تمويل مشروع « السد العالي » ، وهو مشروع له أهمية حيوية بالنسبة للتطور الصناعي المصري ، لمو مثل فاضح على أمثال تلك « المساعدة » .

ولقد كانت شركة قناة السويس وثيقة الارتباط بالمؤسسات الاحتكارية الكبرى ، فكانت وثيقة الارتباط بمجموعة من الشركات الاحتكارية والبنوك والمجموعات المالية . ومن الأمثلة على ذلك ، أن الرئيس السابق للشركة ، وهو شارل رو ، كان في الوقت ذاته نائب رئيس شركة سكك حديد باريس — أورليان وشركة اتهمان مارسيليا ، وشركة أفريقيا الاستوائية الفرنسية ، شركة عمليات الأقاليم ، كما كان عضو مجلس إدارة في شركة سكك حديد مراكش ورئيساً للجمعية الفرنسية — المصرية ، بالإضافة إلى مراكز عديدة أخرى . ولم تكن ارتباطات الأعضاء الآخرين في مجلس إدارة شركة القناة أقل وضوحاً من ارتباطات شارل رو .

إن جميع المنشآت والمجموعات الاحتكارية والبنوك كانت تشارك بنصيبها في سرقة مصر .

ومن كل هذا نرى أنه ليس من المستغرب أن ظلت الشركة تطالب الحكومة المصرية بمد أجل امتيازها ، حتى تستمر في جني مثل تلك الأرباح الباهظة بفضل مصر . ويجب أن نعرف بأن المساهمين في شركة القناة كانوا دائبين حقاً على تقديم تلك المطالب لضمان مستقبلهم ، فهم قد اقترحوا منذ سنة ١٩٠٩ ، أى قبل انتهاء مدة الامتياز بستين سنة ، مد الامتياز ، واقترحت الشركة حينئذ في مشروعها لمد الامتياز لأربعين سنة أخرى ، اقتسام الأرباح مع مصر بالمناصفة ابتداء من سنة ١٩٦٧ ، وليس قبل ذلك على الإطلاق .

ولم تضع الشركة وقتاً في سبيل «إقناع» مصر بما وصفته بـ «استحالة» استمرار الملاحه في القناة بعد انتهاء امتياز الشركة سنة ١٩٦٨ ، فهي قد بادرت باستبعاد إمكانية تدريب الفنيين المصريين اللازمين لتشغيل القناة ، حتى تكفل إمكانية انزع بـ «عدم قدرة» المصريين على إدارة القناة . ومن ثمت ، فقد ظل المصريون ، حتى الحرب العالمية الثانية ، محرومين من



تولى مراكز المرشدين في الشركة ، ولم يبدأ تدريب أى مرشد مصرى إلا فى سنة ١٩٤٤ ، وعندما تم تأميم الشركة ، لم يكن هناك سوى ٣٠ مرشداً مصرياً من بين المرشدين بالشركة وعددهم ٣٠٥ مرشداً ، وقد استغل الاحتكاريون ذلك الوضع « للضغط » على الحكومة المصرية . وفى سبيل فرض استمرار الامتياز ، قامت الشركة أيضاً ببناء سلسلة من المنشآت المرتفعة التكاليف والتي لا نفع منها لمصر ، وذلك لكي تحمل مصر عند تصفية الشركة ، أعباء مالية مبالغاً فيها لحساب المساهمين ، وتحصل بذلك على مد الامتياز .

تلك كانت شركة قناة السويس ، التي يتباكى اليوم مساهموها وأصدقاؤهم والمرتبطون معهم ، وحق لهم أن يبكوا .

ولكن ، على أى وجه عاشت تلك القلعة الاستعمارية المتخلفة عن القرن الماضى فى مصر طوال كل تلك السنوات ؟ وكيف أصبحت القناة ، وهى ملك الأمة المصرية ، مصدراً للأسى والآلام لمصر ؟

إن وجود القناة فى أيدي الاستعماريين ، الذين اغتصبوها من مالكةا الحقيقى ، هو مبعث الآلام التى نزلت بالأمة المصرية . فلقد كانت القناة فى يد الفرنسيين ثم الانجليز ، ثم انضم إليهم الأمريكيون هواة الإثراء على حساب الآخرين ، وجميع هؤلاء هم الذين يقومون اليوم بدور «الأوصياء» المعتدى عليهم والمسلمين والمسؤولين عن الأمن والاستقرار الدوليين ، ويحشدون الجيوش فى المواقع الأمامية المؤدية إلى مصر ، ويسعون إلى وضع القناة تحت أقدامهم والتمتع بجميع الحقوق فيها ، ويصنع الاستعماريون « حقوقهم » عن طريق استخدام وسائل الاحتلال واستعباد الشعب المصرى ، فالاحتلال الانجليزى لمنطقة القناة وشركة قناة السويس هما جزءان من كل واحد ؛ ويكمل بعضهما بعضا .

غير أن الشعب المصرى لم يقبل أبداً ذلك الموقف ، ولم يقبل أبداً حالة

التبعية للاستعمار ؛ ولم يسمح أبداً بأن يمارس الاستعماريون « حقوقهم » على حسابه . وهناك مثل مصرى يعبر عن مشاعر وأمانى الشعب المصرى التى لم تتغير طوال أيام استبداد الاستعمار به ؛ وهو مثل يقول : « إن المومياء فقط هى التى تتألم فى صمت » .

ومنذ اليوم الأول لسيطرة الاستعماريين على البلاد ، يقوم الشعب المصرى بنضال لا هوادة فيه فى سبيل استقلاله الوطنى .

ولقد انبثقت حركة وطنية تحريرية فى مصر سنة ١٨٨٢ بقيادة أحمد عرابى ، وكان شعارها : « مصر للمصريين » ، ودافع الوطنيون المصريون فيها بطولة عن حريتهم ، ولم يستطع المحتلون الانجليز تحقيق خططهم العينية وفرض استبعادهم على الأمة المصرية واغتصاب قناة السويس منها ، إلا بسبب التفوق فى الأسلحة فقط . ومن أسباب هزيمة حركة عرابى أن الثوار رفضوا الاستفادة من مزية القيام بهجوم من ناحية قناة السويس ، بينما استغل الاستعماريون الانجليز تلك المزية ولم يهجموا حيدة القناة . ومما تجدر الإشارة اليه أن الانجليز أوقفوا ، عقب احتلالهم القناة ، الملاحة فى ذلك البحر الذى الهام والذى يجرى الانتفاع به لمصلحة الملاحة الدولية .

وفى خلال السنوات العشر الأولى من القرن الحالى ؛ اتسعت حركة التحرير الوطنى ؛ وذلك عندما وصلت إلى الشعب المصرى أصداء ثورة روسيا فى سنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٧ وقد بلغ نضال الشعب المصرى ضد المحتلين حدا اضطرمعه الاستعماريون إلى استدعاء كرومر « الملك غير المتزوج » فى مصر والذى كان الحاكم البريطانى للبلاد .

وعلى أثر ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى ؛ التى أقامت أسسا جديدة ، وغيّرت المصير التاريخى للبلاد المستعمرة والواقعة تحت السيطرة قام نضال الشعب المصرى الواسع فى سبيل التحرر الوطنى على أسس جديدة ، واتخذ نضال الشعب المصرى ضد الاستعماريين طابعا جماهيريا ؛ واضطر

الاستعماريون الانجليز ، تحت ضغط الحركة الوطنية الشعبية التي ازدادت كبراً واتساعاً ، إلى إعلان استقلال مصر في سنة ١٩٢٢ وإصدار الدستور في سنة ١٩٢٣ .

غير أن الاستعماريين كانوا لا يزالون أقوياء في تلك الفترة ؛ وكان النظام الاستعماري لا يزال قائماً رغم تحله في الداخل ، وكان لا يزال في استطاعة الاستعماريين أن يحافظوا على سيطرتهم بواسطة المناورات الملتوية . ولم يغير إعلان سنة ١٩٢٢ الموقف الناشئ في البلاد ، واستمر الاحتلال كما استمرت السيطرة الأجنبية التي لا حذ لها في منطقة القناة .

ومن بين تلك المناورات التي استخدمها الانجليز ما يسمى بمعاهدة « التحالف » الانجليزية — المصرية المعقودة سنة ١٩٣٦ . فما أن أصدرت إنجلترا تصريح سنة ١٩٢٢ حتى بدأت تبحث عن شكل وعن ستار يكفل لها المحافظة على احتلال مصر في إطار « الاستقلال » المزعوم ، ومن بين الأشكال التي وجدها معاهدة ١٩٣٦ التي فرضتها إنجلترا على مصر بدعوى حماية مصر من خطر الاستعماريين الإيطاليين والألمان ؛ ويسمى الشعب المصري تلك المحالفة باسم الحماية المقنعة ، وقد استطاعت إنجلترا — بمقتضى تلك المعاهدة — لا أن تحافظ على احتلالها للأراضي المصرية فحسب ، بل وأن توسع نطاق ذلك الاحتلال ، ووصلت إلى مصر بعثة عسكرية بريطانية وأعفى العسكريون الانجليز من الخضوع للمحاكم المصرية ، وكان على مصر التي وصفتها معاهدة ١٩٣٦ بأنها « ذات سيادة » أن تستشير إنجلترا في مسائل السياسة الخارجية . وكان عليها ألا تعقد أى محادثات سياسية مع الدول الأخرى . لقد كانت معاهدة ١٩٣٦ معاهدة الاستعباد في الحقيقة ، وكانت خرقاً لسيادة مصر .

وعلى أثر الحرب العالمية الثانية دخلت حركة الشعب المصري للتحرر الوطني مرحلة جديدة وقوية ، فطالبت الأمة — بلا هوادة — بإلغاء معاهدة

١٩٣٦ ؛ وبإنهاء الاحتلال الأجنبي ، واتسع نطاق النضال الوعاني يوماً بعد يوم رغم جميع محاولات الاستعماريين ا رثلته ، وفي أكتوبر سنة ١٩٥١ عبر البرلمان المصري عن إرادة الجماهير الشعبية الواسعة ، فألغى معاهدة ١٩٣٦ ، التي كانت سبة في جبين الكرامة الوطنية للدولة المصرية والتي كانت التكاأة الرسمية للاحتلال الإنجليزي لقناة السويس ، ورد الاستعماريون على ذلك القرار القانوني المشروع بشن عدوان جديد ؛ وأحلوا منطقة قناة السويس إلى ميدان للعمليات العسكرية دون أى احترام لانفاية ١٨٨٨ ، وأسأل المحتلون الدماء المصرية على الأرض التي تملكها مصر ، وقاوموا إرادة السيادة المصرية ؛ وهب الشعب المصري بشجاعة للدفاع عن حقوقه ؛ وكان على الاستعماريين ، في تلك المرة ، أن يتراجعوا .

لقد كان تحرر مصر من تلك المعاهدة الاستعبادية شاهداً على التغيرات الرائعة التي حدثت في حياة الأمة المصرية ؛ ولكن الشعب المصري لم يتوقف عند ذلك الحد ، وإنما واصل نضاله الحاسم في سبيل الاستقلال وفي سبيل النهضة الوطنية ؛ وأحرز الشعب انتصاراً تاريخياً بقيام الهبة الثورية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهي الهبة التي مهدت لها جميع النضالات الداخلية في سبيل التحرر الوطني ، وفي خلال الثورة عزل فاروق وطرد خارج حدود البلاد ؛ وأعلنت لجنة الثورة وقد استولت على الحكم ، شعار القضاء على النظام الإقطاعي — الملكي الذي كرهته الجماهير ؛ وتحرير مصر من السيطرة الأجنبية .

وأدت أحداث ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالبلاد إلى القضاء التام على النظام الملكي وإعلان الجمهورية بمصر في ١٨ يونيو ١٩٥٣ .

وقد أتاح إلغاء النظام الملكي في مصر وإعلان الجمهورية ، للأمة المصرية ، أن تحصل على نتائج فعلية في نضالها ضد المحتلين ، وأسفرت المحادثات الانجليزية — المصرية ، حول جلاء القوات الانجليزية عن منطقة

قناة السويس ، عن توقيع الاندابة الانجليزية — المصرية في سنة ١٩٥٤ لإنهاء الاحتلال في منطقة قناة السويس . وأوضحت اتفاقية ١٩٥٤ ، وما تلاها من جلاء القوات الانجليزية بعد أن ظلت تحتل قناة السويس مدة ٧٤ سنة ، للعالم أجمع ، أن الأمة المصرية تقرر شئونها بنفسها ، واتضح ذلك أكثر في دستور مصر الجديد الذي تقرر باستفتاء في ٢٣ يونيو ١٩٥٦ ، فقد أزد هذا الدستور الأول للجمهورية المصرية المكاسب التاريخية للشعب المصري ، ورسم هدفا هاما هو تحقيق الاستقلال الوطني الكامل غير أنه كان من الواضح أيضاً أنه مادام الأجانب قادرين على التحكم في البلاد عن طريق شركة قناة السويس ، والاثراء على حساب الشعب المصري ، وماداموا قادرين على خرق حقوق سيادة مصر ، فإن مصر لا يمكن أن تحقق الاستقلال الكامل . ومن ثمت ، فقد اتخذت الحكومة المصرية — وهي معتمدة على حقوق سيادتها وعلى التأييد العام للأمة المصرية — قرار تأميم شركة قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٥ . وصدر قانون جعل من تلك الشركة . التي كانت تخدم المستعمرين ، والتي كانت تثرى على حساب مصر ، إدارة تابعة للدولة المصرية ، وجاء في المادة الأولى من ذلك القانون : « تؤمم الشركة المالية لقناة السويس البحرية (شركة مساهمة مصرية) ، وينقل إلى الدولة جميع ماله من أموال وحقوق وما عليها من التزامات ، وتحل جميع المديونيات واللجان القائمة حالياً على إدارتها ، ويعوض المساهمون وحملات حصة التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص ، بقيمتها مقدرة بحسب سعر الاقوال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون في بورصة الأوراق المالية بباريس ، ويتم دفع هذا التعويض بعد اتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة » . وتنص المادة الثانية على الاجراءات التي كفيل ، بعد التأميم ، بإدارة الملاحه في القناة ، وتقوم بتلك الادارة هيئة مستقلة لها الشخصية القانونية

الاعتبارية ، وتلحق بوزارة التجارة . ويصدر بتشكيل تلك الهيئة وتحديد مقرها قرار جمهوري ، ولها في سبيل ادارة الملاحه في قناة السويس جميع السلطات اللازمة لهذا الغرض دون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية ، ولها ميزانيتها المستقلة .

وتعالج المادة الثالثة من القانون مسألة مصير أموال وممتلكات وحقوق الشركة المؤممة ، ويقضى القانون بتجميد أموال الشركة المؤممة وحقوقها في مصر والخارج ، ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف في تلك الأموال بأى وجه من الوجوه أو صرف أى مبالغ أو أداء أية مطالبات أو مستحقات عليها إلا بقرار من هيئة إدارة القناة .

أما المادتان الرابعة والخامسة من القانون ، فتعالجان مسألة النظام الذى يتبع فيما يتعلق بجميع موظفي الشركة المؤممة الإداريين والفنيين وعمالها ، الذين عليهم الاستمرار فى أداء أعمالهم .

وتنص المادة السادسة على ما يلى : « ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية ، ويكون له قوة القانون ، ويعمل به من تاريخ نشره ، ولوزير التجارة إصدار القرارات اللازمة لتنفيذه » .

وقد تكونت فى مصر إدارة حكومية لقناة السويس ، أطلق عليها اسم « الهيئة المصرية لإدارة قناة السويس » وتولت تلك الهيئة إدارة شئون الشركة المؤممة ، وعين مدير لتلك الهيئة يساعده عشرة أعضاء ، واتخذت الحكومة المصرية كذلك عدة تدابير خاصة بالنشاط العملى للإدارة الجديدة للقناة ، وأصدر وزير مالية مصر ، القيسونى ؛ خطاباً دورياً إلى جميع البنوك فى مصر . أبلغها فيه بقرار التأميم وتأليف الهيئة المصرية ، كما تم إبلاغ البنوك الأجنبية بقرار تجميد ممتلكات الشركة المؤممة . وهكذا ، وضع تأميم شركة القناة حداً لعمليات الإثراء التى كان يقوم بها المسامحون الأجانب على حساب مصر ؛ وأرسى قواعد إمكانيات

جديدة للبلاد وهي في سبيلها إلى تحقيق استقلالها السياسي والاقتصادي الكامل . إن تأميم شركة قناة السويس يزود مصر بمصدر دخل كبير ستستخدم جزءا منه في تنفيذ مشروعات التنمية الاقتصادية والصناعية ، وتستطيع مصر الآن أن تبنى « السد العالى » ؛ وهو المشروع ذو الأهمية الحيوية للبلاد ، بإمكانياتها الخاصة ، وأن تتحرر من التبعية المالية للدول الغربية .

وبتأميم شركة قناة السويس ، استعادت مصر حقوقها في القناة بعد أن كان الاستعماريون قد اغتصبوها منذ عشرات السنين . ومع هذا ، فقد أثارت تلك النهاية الانتصارية للنضال الطويل الذى قامت به مصر ، عاصفة بين الدول التى ظلت ، لسنين طويلة ، تستغل الشعب المصرى ؛ والتى لا تريد الاعتراف بأن عهد الاستعمار قد ولى . وترغب تلك الدول فى الضغط على مصر حتى تتمكن من أن تغتصب من الشعب المصرى — مرة أخرى — ملكيته الوطنية ، وهى قناة السويس .

ولكن الشعب المصرى مصمم على الدفاع عن قضيته العادلة ضد جميع محاولات الاستعماريين . وتتعقد الاجتماعات فى جميع أنحاء البلاد تحت شعار : « بريد السلم » و « عاش الاستقلال » . وقد انعقدت اجتماعات واسعة بصفة خاصة فى القاهرة وبورسعيد وفى المدن المصرية الأخرى ، وأعلن المجتمعون تأييدهم التام لقرار الحكومة المصرية ، كما أعلنوا — فى حزم وقوة — تصميمهم على الدفاع عن أرض الوطن ضد كل عدوان يشنه الاحتكاريون ؛ وتغلغل النشاط الوطنى فى جميع أوساط الشعب ، ولم يشهد تاريخ مصر من قبل مثل تلك المشاعر الوطنية القوية ومثل ذلك الاجماع الشعبى ، وأعلن الشعب التعبئة العامة

وقد أعلن رئيس جمهورية مصر ، « إن شعبنا يعرف كيف يدافع

عن سيادته وعن استقلاله ، وسيكافح في سبيل حقوقه حتى آخر قطرة من دمه » .

وأضرب الشعب المصرى أربعاً وشرين ساعة احتجاجاً على السياسة الاستعمارية التى ترمى إلى سلب حقوق الدولة المصرية فى السيادة ، وفى ليلة ١٥ - ١٦ أغسطس ، أى قبل انعقاد مؤتمر لندن . توقفت فى جميع أنحاء مصر وسائل المواصلات الحديدية والنهرية والمدنية ، وتوقفت المواصلات الجوية مدة ٢٤ ساعة . وأغلقت المطارات وألغيت الأسفار الجوية الداخلية والدولية ، ولم يحدث سوى استثناء واحد فى ذلك الإنعزال إذ لم يضرب موظفو القناة وظل الممر البحرى مفتوحاً للملاحة ، كما ظلت إدارات الكهرباء والتليفون والتلغراف والإذاعة تواصل عملها ، وساد النظام والهدوء الكاملان شوارع القاهرة .

وفى ساعة افتتاح مؤتمر لندن ، الذى انعقد لبحث مسألة قناة السويس توقف العمل فى جميع أنحاء البلاد لمدة خمس دقائق ، تلبية للنداء الذى وجهته النقابات والهيئات المصرية الأخرى ، احتجاجاً على سياسة الدول الغربية ، وعند الظهر تماماً توقفت الإذاعة المصرية عن الإرسال وأعلنت خمس دقائق من الصمت ، وتوقفت جميع المواصلات فى شوارع القاهرة . وقد راعت الحكومة المصرية المصالح الدولية المرتبطة بقناة السويس التى تقوم بدور هام فى التجارة العالمية ، فأعلنت استعدادها للتفاوض مع حكومات البلاد الأخرى الموقعة على اتفاقية القسطنطينية المبرمة سنة ١٨٨٨ ، وعقد مؤتمر تشترك فيه جميع الحكومات التى لها سفن تعبر قناة السويس ، وذلك بغية تعديل اتفاقية القسطنطينية وبحث إمكانيات عقد اتفاق جديد يكفل ويضمن حرية الملاحة فى قناة السويس : ويؤخذ من البيان الذى أصدرته الحكومة المصرية بهذا الصدد فى ١٢ أغسطس أنه يمكن تسجيل مثل ذلك الاتفاق الجديد فى الأمانة العامة للأمم المتحدة ،



ويمكن أن يظل ذلك الانتماء فتوحا لانضمام بلاد أخرى إليه متى رغبت تلك البلاد في ذلك ، وإن الحكومة المصرية — في بيانها هذا — لتحترم مصالح البلاد الأخرى ، وتؤكد إخلاصها لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة ولقرارات مؤتمر باندونج التي أوصت بتسوية المشاكل الدولية سلميا .

لقد تحقق حلم الأمة المصرية ؛ ذلك الحلم الذي عبر عنه — ذات يوم — سياسي مصري من القرن الماضي إذ قال : «ريد القناة لمصر ؛ لا مصر للقناة» ومنذ اليوم ؛ لن يتصرف أحد في القناة إلا من له جميع حقوق ذلك التصرف ، وليس لأحد تلك الحقوق سوى الشعب المصري .

# الإنسانية التقدمية

## تقف كلها إلى جانب مصر

قابلت الإنسانية التقدمية بأكملها بمزيد الارتياح استعادة الشعب المصرى لحقوقه فى ملكيته الوطنية لقناة السويس . فإن الشرفاء فى جميع البلدان يعتبرون قرار الحكومة المصرية بتأميم قناة السويس عملاً مشروعاً قامت به دولة ذات سيادة تصبو إلى الحرية والاستقلال التامين .

وكتبت الصحيفة المصرية « الجمهورية » تقول : « عبر ما يزيد عن مليار ونصف مليار من سكان مختلف بلدان العالم وينتمون إلى جنسيات وعقائد مختلفة ، عن تأييدهم الكامل لمصر فى مسألة قناة السويس » .

واستقبلت البلدان العربية ، بحماس وغبطة ، قرار الحكومة المصرية . فإن هذه البلدان تناضل ، بالتعاون مع مصر ، فى سبيل سيادتها الوطنية الكاملة ، وتتضامن تضامناً تاماً مع مصر ، إذ تنظر إلى قرار الحكومة المصرية على أنه إجراء من أهم الإجراءات التى تهدف إلى القضاء على السيطرة الاستعمارية فى البلدان العربية . وكتبت صحيفة الرائد الليبية تقول : « إن تأميم القناة يعنى أن الشرق العربى لا يريد أن يظل بقرة حلوبا لغيره ... ويعنى أن الشرق العربى سيطبق خطة الحزم فى سياسته الاقتصادية التى ستكون مبنية على مبدأ المساواة والمنافع المتبادلة . ويجب أن تستغل الثروات الحقيقية فى الشرق العربى لمصلحة الأمم العربية ، لا لمصلحة الاحتكاريين الأجانب » .

وأيدت الحكومة المصرية ، رؤساء حكومات سوريا والمملكة العربية السعودية واليمن ولبنان والملك حسين ، ملك الأردن ، وحكومات ليبيا وبلدان عربية أخرى . وأعلنت حكومة العراق — رسمياً — تأييدها لمصر في تأميم قناة السويس .

وقامت عدة مظاهرات ، كما عقدت عدة اجتماعات في جميع البلدان العربية تحت شعار أن مشكلة قناة السويس مشكلة وطنية لجميع البلدان العربية . واشترك آلاف الناس في الاجتماعات التي عقدت في دمشق وبيروت وعمان والقدس والخرطوم وطرابلس ومدن هامة أخرى في البلدان العربية . وعلق المشاركون في هذه الاجتماعات على قرار الحكومة المصرية العادل بتأميم شركة قناة السويس بأن أعلنوا بحزم أنه لا يمكن السماح للدول الغربية بالتدخل في شئون مصر الداخلية .

وكانت شعارات هذه الاجتماعات هي : «البلدان العربية للعرب وحدهم» و « قناة السويس لنا » ، و « نحن على استعداد للدفاع عن مصر » . وحضر الاجتماع ، الذي عقد في ١٤ أغسطس سنة ١٩٥٦ في الخرطوم ، ما يزيد عن عشرين ألف شخص . وأعلن في هذا الاجتماع عن تأليف « الجبهة الوطنية للتضامن مع مصر » .

لقد أيدت البلدان العربية مصر بحزم ، وأنذرت البلدان الغربية إنذاراً قاطعاً بأن أى تدخل عسكري من جانبهم في شئون مصر ستعتبره الدول العربية تدخلاً في شئونها الخاصة . وصرح عبد الله اليافى رئيس الحكومة اللبنانية بأن « أية سياسة عدائية نحو مصر لا تصيب أهالى مصر وحدهم بل إنها تصيب جميع العرب » .

وأدلى رؤساء البلدان العربية الأخرى والشخصيات المسؤولة فيها بتصريحات مماثلة .

وقد أكد عبد الله الفضل ، سفير المملكة العربية السعودية في القاهرة

أن : « الملك سعود وحكومته يرون أن قناة السويس منشأة عربية في أرض عربية ، ويجب أن يملكها العرب ، وسندافع بكل عزم عن حقوق العرب » .

وأعلن وزير الدفاع الليبي عن تأييد الأمة والحكومة الليبية الكامل لمصر ، وقال إن أراضي ليبيا لن تستخدم قاعدة للعمليات العسكرية ضد مصر » .

ونقلت وكالة أنباء الشرق الأوسط في الخرطوم نبأ مفاده أن اللجنة التنفيذية للحزب الاتحادي الوطني طلبت دعوة البرلمان السوداني إلى جلسة غير عادية لتأييد مصر . وجاء في بيان اللجنة التنفيذية أن : « السودان الحر يقف بشكل كامل إلى جانب مصر التي تناضل لتدعيم الاستقلال والسيادة » .

واجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية يوم ١٢ أغسطس في القاهرة للتعبير عن التأييد الكامل لمصر في مسألة تأميم شركة قناة السويس . وقد اشتركت في هذا الاجتماع مصر وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والأردن والعراق واليمن وليبيا . ووافقت اللجنة السياسية للجامعة على قرار تأميم شركة قناة السويس ، وأعلنت أنها : « تشارك مصر في وجهة نظرها ، وتؤيد تأييداً كاملاً جميع التدابير اللازمة التي قد تتخذها مصر فيما بعد » .

إن جبهة الاتحاد والتضامن مع مصر تتسع وتنمو ، يوماً بعد يوم ، في البلدان العربية . ففي ١٦ أغسطس وهو يوم افتتاح مؤتمر لندن ، أضربت جميع البلدان العربية ، للتعبير عن تضامنها مع مصر وإظهارها لاحتجاجها على السياسة الاستعمارية للدول العربية التي تمس حقوق مصر في السيادة .

وأحدث قرار مصر صداه كذلك في البلدان الأخرى في بلاد الشرقين

الأدنى والأوسط ، فقد صرح أردلان ، وزير خارجية إيران ، بأن تأميم شركة قناة السويس حق من حقوق السيادة للحكومة المصرية . وأيد الباكستانيون مصر في تأميمها لشركة قناة السويس تأييدا كاملا ، ووصفت صحف « باكستان تايمز » و « سيفل أندميليترى جازيت » و « نافاي فاكت » ، وهي صحف باكستانية تصدر في لاهور ، القرار الذي اتخذته مصر بأنه عمل « جرىء وعادل » .

ونشرت صحيفة « تايمز أوف كراتشي » تصريحات عدة رجال من رجال السياسة الباكستانيين ، رحبوا فيها بتأميم قناة السويس . وعقدت مختلف الأحزاب السياسية والهيئات في باكستان اجتماعات هامة لتأييد مصر وذلك في مدن دكا ولاهور وكويتا وبشاور . ورحبت دول أخرى كذلك بقرار الحكومة المصرية في تأميم شركة قناة السويس على أنه قضية مشتركة في النضال ضد الاستعمار .

فقد صرح الرئيس سوكارنو ، رئيس جمهورية أندونيسيا ، بأن « قناة السويس لا تمهم مصر وحدها . بل تمهم جميع البلدان التي لا تزال واقعة تحت سيطرة الاستعمار ، والبلدان التي نالت استقلالها حديثا . » ومضى يقول : « يجب أن تنادى جميع بلدان آسيا والشرق في صوت واحد - ارفعوا أيديكم عن مصر » .

وأعلنت حكومات الهند وسيلان وأهالي بورما عن تأييدهم لمصر ، وعقدت عدة اجتماعات كبيرة في هذه البلدان ، وكانت شعاراتها شعارات التأييد والموافقة على قرار مصر .

واعتبر يوم ١٩ أغسطس ١٩٥٦ « يوم السويس » في الهند ، إظهارا لتضامن الهند مع مصر ، وقد تم ذلك نتيجة نداء وجهه مجلس السلام في جميع الهند . واستنكر آلاف المواطنين الهنود سياسة الدول الغربية تجاه مصر ، وطالبوا بأن تحترم حقوق مصر في الاستقلال والسيادة دون

أية شروط . وتكلم في هذا الاجتماع مولانا أحمد سعيد ، ممثل المسلمين الهنود ، فقال : « إننا نقول للذين يهددون مصر باتخاذ تدبير عسكري ضدها ، إننا نستنكر بقوة مثل هذه التدابير . وإن استخدام القوة ضد مصر عمل عدائى موجه إلى جميع الدول الآسيوية » .

وأكدت الدول الشرقية أن سياسة الدول الغربية تخرق حقوق مصر في السيادة ، وتزيد التوتر الدولى ، وأن عهد الاستعمار قد انتهى .

فقد كتبت الصحيفة الهندية « هندستان ستاندار » : تقول . « لقد مضى عصر الامتيازات ، ويجب على الدول الغربية أن تحترم مصالح مصر وسعيها لحل مشاكلها الاقتصادية . »

وتنظر شعوب الهندو أندونيسيا وبورما وسيلان إلى قرار الحكومة المصرية على أنه مثل يحتذى في سياسة الاستقلال . فقد وصفت صحف أندونيسيا وهي « سولو اندونيسيا » و « مردىكا » ، « وهاريان راكيات » قرار الحكومة المصرية بأنه قرار جريء وحاسم .

وعبرت شعوب بلدان قارات أخرى عن موافقتها على قرار الحكومة المصرية المشروع . فعقد في بيونوس آيرس ، عاصمة الأرجنتين ، مؤتمر خاص لمعهد القانون الدولى العام ، وخصص هذا المؤتمر لدراسة تأميم مصر لقناة السويس والمشاكل القانونية المتعلقة به ، وجاء في جريدة « لا أيبوكا » أن أغلبية الخطباء في هذا المؤتمر اعتبروا قرار الحكومة المصرية بتأميم شركة قناة السويس رارا قانونيا وله ما يبرره تبريرا كاملا . وأيدت أقسام كبيرة من الشعوب الغربية مصر .

ففي فرنسا ، دعا الاتحاد العام لنقابات العمال الطبقة العاملة الفرنسية إلى أن تعارض بقوة كل تدخل في شئون مصر الداخلية ، وأشارت الصحيفة الإيطالية « بايزيه سيرا » إلى أنه ليس في مصلحة إيطاليا أن تبقى

مناطق جبل طارق وقناة السويس والدردنيل أبواباً مفاتيحها في أيدي الدول الأجنبية ، لا في أيدي أصحابها الشرعيين .

\* \* \*

وقبول قرار الحكومة المصرية بارتياح كبير في جمهورية الصين الشعبية وفي البلدان الأخرى من بلاد الديمقراطية الشعبية . فقد صرحت هذه البلدان بأن تأميم قناة السويس عمل هام وعادل قامت به مصر للدفاع عن سيادتها واستقلالها .

وكتبت صحيفة « دا جنباو » الصينية تقول : « كانت قناة السويس كدودة العلق ، تمتص دماء الشعب المصري وتنقوض شيئاً فشيئاً سيادة واستقلال مصر . ولكن دودة العلق هذه قد طرحت جانباً ، وصفت تلك الشركة التي كانت دولة داخل الدولة . وهذه خطوة كبيرة إلى الأمام خطتها مصر بعد قيام ثورتها عام ١٩٥٢ .

وأيدت جمهورية الصين الشعبية والديمقراطيات الشعبية الأخرى الحكومة المصرية تأييداً تاماً وأدانت استفزات الاستعماريين ومحاولاتهم لتخويف الشعب المصري ، وكتبت الصحيفة الفيتنامية « نيان زان » تقول : « يجب أن يفهم الاستعماريون أن المصريين الذين ناضلوا ببسالة قرناً كاملاً من الزمن في سبيل حريتهم واستقلالهم الوطني ، لن تخيفهم قعقة السلاح .

وأيدت الدول الديمقراطية المصرية في بيانها الخاص بتأميم شركة القناة إذ اعتبرته محاولة عداقة قامت به مصر لحل مشكلة القناة حلاً سليماً .

ويؤيد الاتحاد السوفيتي الأمن القومي للأمة المصرية تأييداً كاملاً . وقد أصدرت حكومة الاتحاد السوفيتي « بياناً عن مشكلة قناة السويس » في ١٩ أغسطس ١٩٥٦ ، أشارت فيه إلى أنها تعتبر قرار الحكومة

المصرية الخاص بتأميم قناة السويس عملاً مشرعاً تماماً ، بالنسبة لحقوق مصر في السيادة . وحددت حكومة الاتحاد السوفيتي موقفها من المؤتمر الدولي الخاص بمسألة الملاحة في قناة السويس على أساس النصوص الهامة للقانون الدولي ، وجاء في بيانها بهذا الشأن أن أية محاولات لتبديل لإلغاء قرار الحكومة المصرية الخاص بتأميم شركة قناة السويس إنما هي تدخل سافر في شئون مصر الداخلية ، فإن حق مصر في تأميم تلك الشركة ، حق مشروع لا يمكن لأى مؤتمر دولي أن يسلبه .

ومع ذلك ، فقد اجتهد الاتحاد السوفيتي لايجاد حل عادل لتسوية مشكلة حرية الملاحة في القناة لمصلحة مصر . والبلدان الأخرى المعنية بالأمر ، وذلك لأن الاتحاد السوفيتي وهو نصير تسوية المشكلات الدولية تسوية سلمية وتحقيقاً لذلك ، أرسل الاتحاد السوفيتي مندبا عنه إلى مؤتمر لندن الذى دعت إليه إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . وكان مؤتمر لندن ، في نظر الاتحاد السوفيتي مجالا لتبادل الآراء بشكل تمييدى لتوضيح بعض النقاط التى قد تصلح فيما بعد أساساً لمؤتمر قانونى يضم جميع الدول التى تستخدم القناة . وأيدت الحكومة السوفيتية تأييداً كاملاً اقتراح الحكومة المصرية بعقد مؤتمر دولي كبير خاص بمسألة الملاحة في القناة إذ ترى حكومة الاتحاد السوفيتي أن ذلك الاقتراح يحقق مصلحة السلام العالمى .

وقد دل التأييد الواسع الذى أحضره القرار الشرعى للحكومة المصرية من جانب الإنسانية التقدمية .  
أن رأى العام العالمى أصبح الآن قوة مادية لا يمكن تجاهلها .

\* \* \*

وانعقد مؤتمر لندن الخاص بقناة السويس من ١٦ إلى ٢٣ أغسطس ١٩٥٦ ؛ واشتركت فيه ٢٤ دولة من الأربع وعشرين دولة التي وجهت



إليها الدعوة للاشتراك فيه إذ رفضت مصر واليونان إرسال مندوبين عنها إلى المؤتمر . وأيدت عدة حكومات ومنها الحكومة السوفيتية ، ممن قبلن الاشتراك في المؤتمر عدة تحفظات هامة خاصة بتشكيل أهداف المؤتمر .

وبما أن مصر وغيرها من الدول التي تستخدم القناة لم تحضر المؤتمر فقد اتخذت صفة محدودة وتمهيدية ، ولم يكن المؤتمر يستطيع أن يتخذ قرارات بشأن المشكلة الموضوعة على بساط البحث ؛ فقد كانت مهمة المؤتمر هي المقارنة بين عدة وجهات نظر عن طريق تبادل واسع للآراء بين المشتركين فيه ؛ والتمهيد للقاء رسمي مع مصر .

وقسمت مشكلة القناة منذ بداية المؤتمر إلى قسمين لها أهمية متساوية وهما مشكلة تأمين قناة السويس ومشكلة حرية الملاحة في القناة ؛ أى تأمين المصالح الاقتصادية للبلدان التي تستخدم هذا الممر البحري .

ولم تثير المشكلة الأولى ، وهى مشكلة التأمين ، أية مناقشات ؛ إذ لم يعترض أى مندوب من المندوبين المشتركين في المؤتمر على هذا الإجراء الذى اتخذته مصر على أساس أنه حق مشروع لدولة ذات سيادة .

وعلى العكس من ذلك ؛ أثارت مشكلة الإجراءات والضمانات التي يجب اتخاذها لتأمين حرية الملاحة وتأمين حسن سير العمل في القناة ؛ الكثير من المناقشات والخلافات . وكان الاختلاف الرئيسى في الآراء حول طريقة معالجة مشكلة القناة فيما يختص بمن يقوم بإدارتها .

وكان هناك رأى الاتحاد السوفيتي والهند وأندونيسيا وبلدان أخرى من البلاد المشتركة في المؤتمر وفي البلدان التي لم تشارك في المؤتمر ، وبلغ نصيب هذه البلدان في استخدام القناة نسبة ٥٧ في المائة ، وترى هذه البلدان ؛ أولا : أن مصر ستكفل تماما حرية الملاحة وسير العمل الطبيعي فيها بما يتمشى ومصصلحة التجارة الدولية ؛ وثانيا : أن الضمانات التي تقدمها مصر في هذه الحالة هي ضمانات لها وزن وقيمة أية ضمانات دولية تقدمها

دولة أخرى ؛ وثالثاً ، أن تؤيد الدول التي تستخدم القناة ؛ من جانبها ؛  
تنفيذ الضمانات الخاصة بحرية الملاحة في قناة السويس .  
وقد عبر الاقتراح الذي قدمته الهد إلى المؤتمر عن وجهة النظر هذه  
وتضمن المشروع الهندي حل مشكلة السويس المبادئ الرئيسية  
التالية :

- ١ — الاعتراف بسيادة مصر
- ٢ — الاعتراف بأن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر وأنها بحر  
بحري ذو أهمية دولية
- ٣ — حرية الملاحة على أساس مبادئ اتفاقية ١٨٨٨
- ٤ — المساواة وعدم التمييز في ممارسة حقوق المرور وتمكين جميع  
الدول في استخدام القناة دون تمييز بينها
- ٥ — المحافظة على القناة في حالة جيدة للاستعمال
- ٦ — الاعتراف بمصالح الدول التي تستخدم القناة  
ويتضمن المشروع الهندي ، كما هو واضح ، سلسلة من الاقتراحات  
المحدودة التي كانت تصلح أساساً للمحادثات لتسوية مشكلة قناة السويس  
تسوية سلمية وكان الاقتراح يشمل أربع مجموعات عن الاقتراحات يتعلق  
بالمسائل الآتية :

( أ ) حرية الملاحة ورسوم المرور والمحافظة على القناة وتحسينها .

( ب ) المؤتمر .

( ج ) مصالح مستخدمي القناة .

( د ) الأمم المتحدة .

وكان الاقتراح المحدد يقضى بالآتي :

- ١ — إعادة النظر في اتفاقية القسطنطينية المبرمة سنة ١٨٨٨ بغية  
توكيد مبادئها وإجراء تعديلات فيها تتماشى مع الظروف الجديدة وروح

العصر وكذلك إضافة سلسلة من القرارات بشأن المرور وصيانة القناة .

٢ — عقد مؤتمر يحضره مندوبون عن الدول الموقعة على اتفاقية ١٨٨٨ وجميع الدول التي تستخدم القناة .

٣ — النظر في التوفيق بين مستخدمي القناة ومصالح هيئة إدارة القناة المصرية ، دون المساس بحق ملكية مصر ، وبحقها في إدارة القناة .

٤ — تأليف هيئة استشارية على أساس التمثيل الجغرافي ، والمصالح الاقتصادية وتشترك فيها الدول التي تستخدم القناة ، على أن تكون صفتها استشارية ، وتقوم بعمة التشاور والاتصال .

٥ — تقدم الحكومة المصرية تقريراً سنوياً للأمم المتحدة عن الهيئة المصرية لقناة السويس .

وهكذا يحافظ المشروع الهندي على الحقوق القانونية للجمهورية المصرية وهي المفوضة الوحيدة لإدارة القناة لأن تلك القناة هي وكيبتها الوطنية كما أن المشروع يعترف بمصالح الدول الأخرى التي تستخدم القناة . و طرح المشروع الهندي ، بشكل عادل وواقعي وعلى أساس موازنة حكيمة ، بين حقوق ومصالح جميع الأطراف ، حلاً للمشكلات التي خلقتها الحالة بشأن قناة السويس ، وهو حل يتمشى مع مبادئ اتفاقية ١٨٨٨ وميثاق الأمم المتحدة .

ووافق الوفد السوفيتي على اقتراحات الهند وقدم من جانبه سلسلة من الاقتراحات المحددة التي كانت تهدف إلى معالجة طرق التعاون الدولي بحيث تحفظ لمصر حقوق السيادة وتسهل مع ذلك ؛ سير العمل الطبيعي في قناة السويس كمر مفتوح وحر للملاحة البحرية بما يتفق ومصالح التجارة الدولية ومصالح مصر .

وأخبرت الحكومة السوفيتية حكومة الجمهورية المصرية في ٢٨ أغسطس

١٩٥٦ بموافقاتها على المقترحات الهندية

وعلى العكس من ذلك ؛ اتبعت الولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا خطة مختلفة كل الاختلاف في التصرف ، فقد اتخذت تلك الدول موقف إبعاد مصر عن إدارة قناة السويس خارقة بذلك حقوق مصر في السيادة ، وكان هذا الموقف هو جوهر اقتراحات الولايات المتحدة الأمريكية التي اشتهرت فيما بعد باسم « مشروع دلاس » ويقضى المشروع الأمريكي بالأترك إدارة القناة في أيدي مصر ، بل تتولاها هيئة دولية لإدارة القناة وتتألف عضوية هيئة الإدارة هذه ، بدون مصر ، من « الدول » الأخرى التي تختارها الدول الموقعة على الاتفاقية « وكان على مصر أن تترك حقوق وإمكانيات إدارة قناة السويس لهذه الهيئة .

وكان يعنى مثل هذا المشروع أن تتنازل مصر عن حقوقها في السيادة لمصلحة هيئة دولية في أيدي مجموعة من الدول تتصرف في ملكية مصر الوطنية وتصبح سيادة مصر على القناة ، بمقتضى هذا « المشروع » سيادة اسمية ، كما أنه يفرض على مصر خدمة هذه الهيئة التي تتحول بذلك إلى « دولة داخل الدولة » . وينص هذا المشروع الأمريكي على « عقوبات حقيقية » منصوص عليها لتأمين هذا الوضع تأمينا كاملا ولمواجهة أى نشاط يعرقل الهيئة الدولية عن القيام بمهامها بحرية وبينما كانت شركة القناة محددة على الأقل بتواريخ وحدود معينة لنشاطها ، نص المشروع الأمريكي على أن تزاو الهيئة الدولية نشاطها إلى الأبد .

واستمرت محاولات الالتقاء بين اتجاهين ومبدأين مختلفين تمام الاختلاف ، للوصول إلى حل لمشكلة السويس ، كل الوقت في مؤتمر لندن فقد كانت المناقشة تتعلق بمسألة قبول أو رفض مبادئ حرية واستقلال الدول التي تحررت من يد الاستعمار ، وبالتالي مسألة الموقف الذى يجب اتخاذها إزاء مصر — هل تعامل مصر على أساس أنها دولة ذات سيادة ، وعضو في هيئة الأمم المتحدة ، وسيدة في بيتها بلا منازع ، أم يختار المؤتمر

أن يخرق خرقا صريحا واحدا القوانين الدولية ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة وحقوق مصر المشروعة .

لقد حاولت الدول الغربية أن تستغل مؤتمر لندن لغرض مشروعاتها الاستعمارية على مصر وتمثلت إحدى هذه المحاولات في الاقتراح الذي قدمته نيوزيلندا ، ، بوحى من الولايات المتحدة الأمريكية ، والخاص باعطاء الأولوية « لمشروع دلاس » وبالتالي ، تجاهل المقترحات الهندية . وكان يقضى اقتراح نيوزيلندا باختيار ممثلين عن مجموعة من الدول المؤيدة « لمشروع دلاس » ومن المشتركين في المؤتمر ، للاتصال بمصر بزعم أنهم يتحدثون باسم المؤتمر ، وتكون مهمتهم تقديم المشروع الأمريكي الذي يحتوى على شروط استعبادية ، إلى مصر بشكل إنذار نهائى .

وكان مثل هذا الاقتراح يهدف إلى قسم المشتركين في المؤتمر إلى قسمين وإلى تصوير إرادة البلدان المؤيدة « لمشروع دلاس » على أنها تمثل إرادة مؤتمر لندن كله . وكان واضعو هذا المشروع المناهض للديموقراطية الضاللى نيرون فى حالة رفض مصر لاندازهم — أن يهتموا مصر بأنها غير متعاونة ولا يمكن التعامل معها ، وأنهم بالتالى أحرار فى تصرفاتهم المستقبلية ولكن المحاولات الاستعمارية التى قامت بها الدول الغربية ، واجهت معارضة حازمة من جانب مندوبى الهند وسيلان وأندونيسيا والاتحاد السوفيتى . فقد كشفت هذه الدول المعنى الحقيقى لاقتراح نيوزيلندا وأرغمت الضاللين فى المؤتمر على سحب اقتراحهم .

واتخذ أخيرا قرار إجماعى فى مؤتمر لندن بفضل الموقف الحازم الذى وقفته الدول الراغبة فى الاهتمام إلى حل عادل لا تحيز فيه لمشكلة السويس وقضى القرار بأن يقدم رئيس المؤتمر محاضر جلسات مؤتمر لندن كاملة إلى مصر . وبناء على هذا القرار سامت إلى سفارة مصر فى لندن يوم

٢٥ أغسطس سنة ١٩٥٦ صورة كاملة من محاضر المؤتمر الخاص بمشكلة قناة السويس .

وبذل الاتحاد السوفيتي كل مجهوداته ، طوال مدة المؤتمر الخاص بمشكلة قناة السويس .

وبذل الاتحاد السوفيتي كل مجهوداته ، طوال مدة المؤتمر وفي جلساته النهائية ، لكي يصل إلى معالجة عادلة لمشكلة القناة تكون مقبولة لجميع الدول المعنية بالأمر ، واقترح الاتحاد السوفيتي ، تحقيقا لذلك ، في الجلسة النهائية للمؤتمر ، إصدار بيان قصير باسم جميع الدول يطلق عليه اسم : « بيان من جميع الدول المشتركة في المؤتمر » ، ويستعرض البيان بإيجاز امكانيات تسوية مشكلة قناة السويس تسوية سلمية عادلة ، بحيث تصبح هذه الإمكانيات أساسا صالحا لمحادثات تجرى بين المشتركين في المؤتمر والحكومة المصرية ، لتسوية مشكلة حرية الملاحة في القناة مع احترام حقوق مصر في السيادة .

وبالرغم من ذلك ، فقد أثرت الدول الغربية أن تحدث انقساماً في المؤتمر لتقدم « مشروع دلاس » لمصر ، فرفضت هذه الدول الاقتراح السوفيتي وأنشأت « لجنة الخمسة » . وتبدل أعمال هذه اللجنة فيما بعد ، وخاصة محاولاتها لفرض الاقتراحات الأمريكية على مصر بأي ثمن ، دلالة واضحة على أن النوايا الاستعمارية الحقيقية تجاه مصر .

ولكن محاولات إحداث انقسام في المؤتمر ، وإنشاء مجموعة داخل المؤتمر لتوكيلها بتقديم المقترحات إلى مصر دل على هزيمة الاستعماريين ، إذ دل مؤتمر لندن على أن مشروعات الاستعماريين تصطدم الآن بعقبات متزايدة من جانب الدول الأخرى . ففي خلال جلسات المؤتمر قدمت سلسلة من البلدان ، بالرغم من تأييدها « لمشروع دلاس » عدة ملاحظات ، وأشار مندوبو الدانمارك والنرويج وإيران وأسبانيا واليابان

وبعض الدول الأخرى ! أثناء جلسات المؤتمر ، إلى أن الوسيلة الوحيدة لتسوية مسألة قناة السويس هي إجراء محادثات سليمة مع مصر ، الدولة ذات سيادة .

لقد كان مؤتمر لندن مغراه ، إذ أنه كان ضربة لأنصار سياسة القوة ، كما أن بعض المبادئ الأساسية اثبتت في المؤتمر ، وتم الاعتراف بها بلارات متفاوتة وهي مبادئ تصلح كأساس لمحاولات تسوية مسألة قناة السويس في المستقبل . وهذه المبادئ هي : الاعتراف بحق مصر في تأمين قناة السويس ؛ وضرورة تأمين حرية الملاحة في قناة السويس على أساس أمنها بحر مجرى ذو أهمية دولية ، والاعتراف بسيادة مصر في تسوية المشكلة ، وضرورة تسوية هذه المشكلة تسوية سلمية عن طريق المفاوضات .

وقد كان مؤتمر لندن صداه البعيد بالنسبة للانسانية كلها ، وبالنسبة لمصر بشكل خاص ، فقد أبرزت الصحافة المصرية أهمية هذا المؤتمر ، وكتبت الصحيفة المصرية « الأهرام » تقول : « كان مؤتمر لندن ، بالرغم من كل شيء ، بعض النواحي الهامة ، إذ أنه أرغم الدول الغربية على أن تتخلى عن استعداداتها للحرب ، وعن سياسة التهديد . وبالإضافة إلى ذلك ، أكد المؤتمر حق مصر القانوني غير المنازع في تأمين شركة قناة السويس ، ومن هنا نجح المؤتمر وتحقيق الانتصار لمصر » . ولأحضت الصحيفة كذلك أن هذا « الانتصار إنما هو انتصار جزئي إذ أن النضال الحاسم سيأتي في المستقبل » . ووصفت الصحف المصرية « مشروع دلاس » بأنه مشروع استثماري وكتبت صحيفة « الاجبشيان جازيت » في افتتاحيتها تقول : « يهدف مشروع دلاس إلى اغتصاب حقوق مصر » .

وأبرزت الصحف المصرية ، في استعراضها لنتائج المؤتمر ، أهمية الدور الذي قامت به وفود الاتحاد السوفيتي والهند وسيلان وأندونيسيا في

الدفاع عن حقوق مصر في السيادة ، وفي النضال من أجل تسوية سامية لمشكلة قناة السويس .

وعلمت البلدان العربية الأخرى كذلك على مؤتمر لندن بشكل واسع ، وأبرزت أهمية المؤتمر ، واستنكرت المشروع الذي قدمته الولايات المتحدة الأمريكية ، وعبرت عن تقديرها الكبير لنشاط الوفد السوفيتي وتحدث المسؤولون في البلدان العربية والصحافة العربية بالروح نفسها وإلى وزراء خارجية سيلان وسوريا ولبنان وبلدان عربية أخرى بعدة تصريحات . وأشار صلاح يطار ، وزير خارجية ، سوريا ، إلى أن : جميع الدول العربية على استعداد للدفاع عن حريتها واستقلالها ضد تهديد الدول الغربية . » وامتلات الصحف العربية عندما عبرت عن رد فعلها لمؤتمر لندن بشعار هو : « العرب يعرفون من هو عدوهم ومن هو صديقهم » . وقدرت الصحافة الديمقراطية في جميع البلدان إيجابية المؤتمر ونادت ، من ناحيتها ؛ بأن تكون المحادثات السامية هي وسيلة حل مشكلة السويس . وعلى العكس من ذلك ، حاولت الصحافة الاحتكارية أن الإنسانية تعبر عن إرادة أحبابها وأن تضلل في كتاباتها ؛ وذلك بنشر أن مؤتمر لندن أقر وجهة نظر البلدان المؤيدة « لمشروع دلاس » في تقديم هذا المشروع إلى مصر . فقد أكدت ذلك صحيفتا « ديلي تلغراف » و « مورنينج بوست » الانجليزيتان وبعض الصحف الفرنسية والأمريكية ، ولكن مثل هذه التصريحات كشفت عن المشروعات الحقيقية التي كانت الدول الغربية تبنيها في مؤتمر لندن وأصبحت بالفشل .

ولم تخفف إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، بعد انتهاء مؤتمر لندن ، مراميها الاستعمارية بالنسبة للقناة التي تقع في الأراضي المصرية ، فقد رفض الاحتكاريون الانجليز والفرنسيون والأمريكيون التسوية السامية لمشكلة قناة السويس وشنوا حملة جديدة ضد الدولة



المصرية بدأت بوصول « لجنة الخمسة » إلى القاهرة برئاسة رئيس وزراء استراليا ، منريس . وكانت مهمة اللجنة تقديم « مشروع دلاس » إلى مصر واعتبرت مصر ، الدولة ذات السيادة ، مهمة لجنة منريس على أنها بمثابة انذار نهائى وعرضت المشكلة بالطريقة التالية : أن لم تسلم مصر تسليما كاملا فان الغرب سيعتبر نفسه طليق اليدين . وإثباتا لذلك ، بدأت ، مع وصول بعثة منريس إلى القاهرة ، حملة واسعة من التهديد والضغط ، وكذلك من الاستعدادات العسكرية ذات الضجيج ضد مصر .

ووقعت الصحافة الاحتكارية ضد مصر ، ونادت بعدم التسليم لمصر بشيء ، وطالبت بمقاطعة مصر اقتصاديا . ونادت الصحيفة الفرنسية ، « لاندويندانسى » ، « بأن التضامن بين الدول الغربية يقتضى أن تتحرك .. الآلة المالية والاقتصادية الأمريكية . » وكتبت الصحيفة الفرنسية ، « فيجارو » فى تلك الأيام تقول : « إن لندن وباريس ... مصمماتان كما كانتا من قبل ، على رفض أية مساوية » ... وبالتالي ، طالبت الصحيفة بان يتخذ الاستعماريون الانجليز والفرنسيون والأمريكيون إجراءات عسكرية ، ضد مصر . وأظهر عدد كبير من متحف إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية هذه الروح نفسها ، كما نشرت شركة القناة القديمة إعلانا فى الصحف طالبت فيه المرشدين بالانسحاب من الشركة ، فى حالة فشل بعثة منريس .

واتخذت المظاهرات العسكرية للدول الغربية ، شكلا خاصا تماما ، ففي الليلة السابقة لاجتماع الحكومة المصرية ، « بلجنة الخمسة » ، بدأ نقل القوات الفرنسية إلى قبرص بالاتفاق مع الاستعماريين الانجليز ، وفى الوقت نفسه زادت سرعة الاستعدادات العسكرية فى إنجلترا وفرنسا . وبالإضافة إلى ذلك ، دعت إنجلترا وفرنسا مجلس حلف شمال الاطلسي إلى اجتماع غير عادى يوم ٥ سبتمبر ١٩٥٦ فى باريس ، أى بعد يومين فى بلاد

المحادثات في القاهرة ، وطرحت مشكلة السويس للبحث في هذا الاجتماع الذى دعت اليه الدولتان الغربيتان ، لإعطاء وزن أكبر للاستعدادات العسكرية للدول الغربية ، وكذلك لنيل تأييد الحلفاء في حالة وقوع اشتباك مسلح مع مصر . واشترك في هذا الاجتماع وزراء خارجية فرنسا ، بيلو ، وبريطانيا العظمى ، لويد ، وكندا ، بيرسون ، وبلجيكا ، سباك ، ووكيل وزارة خارجية الجمهورية الاتحادية الألمانية ، هالشتاين . ومثل باقي البلدان الاعضاء في حلف شمال الاطلسي المندوبون الدائمون لهذه البلدان في مجلس الحلف . وكانت جلسات المجلس تعقد مرتين في اليوم في كتمان تام . ولكن بالرغم من ذلك ، نشرت صحف باريس معلومات تقول أن ممثلي إنجلترا وفرنسا وبلجيكا كانوا يصرون على اتخاذ « إجراءات حاسمة » ، وعلى استخدام « الحزم » في حالة رفض مصر « لمشروع دلاس » .

وكانت اجتماعات « لجنة الخمسة » بالحكومة المصرية تتصف بطابع الانذار النهائى ويشهد على ذلك « خطاب منربس إلى الرئيس عبد الناصر بتاريخ يوم ٧ سبتمبر ١٩٥٦ ، فقد أشار الخطاب إلى أن الاجتماعات التي عقدت « دلت على اختلاف كبير في وجهات النظر بالنسبة لطريقة معالجة المشكلة وكذلك بالنسبة للمسائل الرئيسية » بين « لجنة الخمسة » والحكومة المصرية . وأعلن اصحاب الخطاب الموجه إلى عبد الناصر ، نتيجة لذلك ، أنه إذا استمر في موقفه الذى يثبت أنه لا يستطيع أن يقبل الشرح الأصلى ... للاقتراح ... فإن المهمة التي أوكلتها الدول الثماني عشر إلى « لجنة الخمسة » تعتبر متسبية ، إذ ان هذه المهمة كانت تقضى بأن تقدم للجنة الاقتراحات وتشرحها وتستجلى موقف الحكومة المصرية منها .

وكان ذلك يعنى ، بعبارات أخرى ، ان الدول الغربية في هذه الحالة ستكون طليقة اليدين ، وإن « لجنة الخمسة » ستتجاهل الاقتراحات التي قدمتها ملكة القناة ... مصر .

وقبلت الحكومة المصرية الاجتماع « للجنة الخمسة » لأنها لم تكن تستهدف شيئاً سوى إيجاد حل سلمي لمسألة القناة . ولهذا السبب ، أوضحت الحكومة المصرية في ردها الخاص بالاجتماع بمنزلة ، أنه ستتاح للجنة « إمكانية بسط وجهه نظرها » ، بغية تبادل الآراء بعد ذلك ، بحيث يمكن إيجاد حل مقبول لجميع الأطراف . وأشارت الحكومة المصرية في الرد نفسه إلى أن هذا الاجتماع لا يستتبع أية التزامات بالنسبة له ومن الواضح أن الحكومة المصرية رفضت اقتراحات « لجنة الخمسة » التي اتخذت شكل « مشروع دلاس » ، وذلك على أساس أن هذه المقترحات لا تتفق وحقوق الدولة المصرية في السيادة . واتضح موقف الحكومة المصرية هذا في « رد الرئيس عبد الناصر » بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٥٦ الموجه إلى « لجنة الخمسة » والذي أبلغهم أنه يرفض أن يترك جزء من أراضي البلاد تحت سيطرة دول أجنبية . وأكدت الحكومة المصرية ، من جديد ، أهميتها « باستتباب السلام والأمن لافى القناة فحسب ، بل وفى كل المنطقة التي تمر بها وفى العالم أجمع » وقدمت الحكومة المصرية من جانبها اقتراحات محددة في سبيل حل سلمي لمشكلة القناة .

وأشارت الحكومة المصرية من جديد إلى ضرورة عقد مؤتمر دولي على أساس تمثيل صحيح ، واقترحت ، كخطوة أولى ، إنشاء هيئة تبدأ في المباحثات الخاصة بذلك . وكان من رأى الحكومة المصرية أن تتألف هذه الهيئة من مندوب مصرى ومن مندوبين يمثلون ثمانية دول من الدول التي تستخدم القناة . وتتلخص مهمة هذه الهيئة في دراسة : ( أ ) حرية وأمن الملاحة في قناة السويس : ( ب ) تحسين القناة لمواجهة ضمانات الملاحة في المستقبل : ( ج ) تحديد تعريفة ورسوم مرور عادلة متساوية .

واقترحت الحكومة المصرية رسمياً في « مذكرة الحكومة المصرية عن قناة السويس » بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٥٦ ، أن تقوم الهيئة كذلك

بتعديل اتفاقية القسطنطينية ؟ المبرمة سنة ١٨٨٨ .

وبما أن الهيئة المقترحة كانت ستمثل « مختلف وجهات نظر الدول التي تستخدم القناة » . وأنها كانت ستتمتع بسلطات واسعة ، فإن الاقتراح المصرى الخاص بهذه الهيئة كان يصلح تماما كأساس للمباحثات فى المستقبل عن مشكلة قناة السويس . ولكن الدول الغربية لم تقبل المقترحات المصرية .

لقد رأى الاستعماريون أن فشل بعثة منيريس كان يمكن أن يستخدم كمبرر لاتخاذ « إجراءات حاسمة » وفى اليوم التالى للاجتماع فى القاهرة . بدأت المباحثات الإنجليزية — الفرنسية ووصل الأميرال بير بورجو ، قائد البحرية الفرنسية فى البحر الأبيض المتوسط ، إلى لندن على وجه العجلة الاشتراك فى هذه المحادثات ، وأعلن البيان الخاص بهذه المحادثات ما أسماه « الحالة الخطرة » الناجمة عن رفض مصر « لمشروع دلاس » كما أعلن البيان عن تمائل وجهات نظر إنجلترا وفرنسا فيما يخص بالإجراءات القادمة» وأعقب ذلك عقد اجتماع غير عادى للبرلمان الانجليزى وأعلن رئيس الوزراء ، إيدن ، خلال تلك الدورة ، تأليف ما ادعى أنه « هيئة المتفهمين بالقناة » فورا وأشار إلى وحدة وجهات النظر بين حكومته وحكومات كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وكان الأعضاء الرئيسيون فى هذه الهيئة هم الدول الغربية الثلاث وكان على الهيئة أن تضمن « تنسيق الملاحاة فى قناة السويس » ، وتوظيف واستخدام المرشدين ؛ وتحصيل رسوم مرور السفن فى القناة . وهكذا كانت هذه الهيئة تمثل صورة من الشركة القديمة تحمل اسما جديدا وغامرت الدول الغربية فى هذه المرة إلى مدى أبعد من ذلك؛ فقد أراد الاحتكاريون أن يفرضوا على مصر — عضوية هيئة الأمم المتحدة الخضوع إلى هذه الهيئة دون أية مناقشة ؛ ويشهد على ذلك بشكل فاضح التصريح القائل بأنه « فى حالة ما إذا أرادت مصر أن تعرقل أعمال هذه

الهيئة أو ترفض التعاون معها » فإنها تكون مذنبة لأنها تكون قد خرقت اتفاقية ١٨٨٨ ؛ لذلك فقد اعتبر مشروع الدول الثلاث هذا ؛ في دوائر دولية واسعة بمثابة استفزاز خطير .

واتخذ الاستعماريون تدابير واسعة لتحقيق مشروعهم ، وكان للطابع الذى اتصفت به تلك التدابير مغزاه ، فقد تم أولا حشد القوات الانجليزية على الحدود الفاصلة بين مصر وليبيا ، وشحنت أسلحة إلى هناك ، وانشئت مخازن ذخيرة ، وتجاهل الاستعماريون الانجليز احتجاج الحكومة الليبية بهذا الشأن . وفي الوقت ذاته ، استدعت شركة قناة السويس القديمة الموظفين الأجانب الذين كانوا يعملون في الشركة ، وذلك بتحريض من الدوائر العدوانية في إنجلترا وفرنسا . وكان هذا الاستفزاز يهدف إلى أن يثبت للعالم أجمع الزعم القائل بأن مصر غير قادرة على تأمين استقرار الملاحة في القناة . وفي ١٩ سبتمبر ١٩٥٦ عقد مؤتمر انفعالى في لندن حضره ممثلو ثمانية عشر دولة لمناقشة مشكلة قناة السويس . وبذل أصحاب فكرة هذا المؤتمر ، وهم الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا كل مجهوداتهم لاقناع ممثلى الدول المدعوة للمؤتمر بتأييد المشروعات التى وضعت في واشنطن ، ووافقت عليها لندن وباريس ، وهى المشروعات الخاصة بانشاء «هيئة المنتفعين بالقناة » ولم تحدد الصفة غير القانونية الواضحة للمؤتمر من نشاط منظّمه إذ لم تشترك مصر ومعظم البلدان التى تستخدم القناة في هذا المؤتمر . وإلى جانب ذلك ، فإن المشتركين في المؤتمر لم يكن لهم أى حق في اتخاذ قرارات تمس حقوق مصر في السيادة ، وكان ذلك واضحاً ، إذ رفضت مصر هذا المشروع الاستفزازى ومن أبرز ما حدث الموقف الذى اتخذه الاشتراكيون الفرنسيون من مصر ، وهم الذين يتحدثون كثيراً عن حقوق الإنسان ، فقد كان موقفهم موقف « عدم الملاينة » . ولكن الأمة المصرية رفضت بحزم جميع المحاولات التى قامت بها الدول

العربية لاغتصاب حقوق مصر في السيادة وأعلن الرئيس جمال عبدالناصر معبراً بذلك عن إرادة الشعب كله ، أن مصر « مستعدة للدفاع عن سيادتها بأى ثمن » ، وأنها مصممة على « الدفاع عن حقوقها حتى آخر قطرة من دمها » وفي الوقت ذاته ، اقترحت مصر من جديد عقد مؤتمر دولي لحل مشكلة القناة حلاً سلمياً .

وصف الشعب المصرى استنزاز الغرب الذى تمثل فى استدعاء المرشدين الأجانب من القناة فقد غادر مصر يوم ١٤ سبتمبر ١٩٥٦ خمسة مائة وعشرون موظفاً أجنياً من بينهم مائة وثلاثة وثلاثين مرشداً ، وبالإضافة إلى تلك ، نصب منظمو هذا التخريب نفخاً لمصر فى ذلك اليوم لتعطيل الملاحة فى القناة فى يوم سفر المرشدين وصلت خمسون سفينة فى يوم واحد إلى بورسعيد والسويس لأول مرة فى التاريخ ، وسدت هذه السفن ومعظمها أمريكية وإنجليزية وفرنسية ، مداخل المينائين ، ولكن المصريين نجحوا فى تأمين استمرار مرور السفن ، كما نجحوا فى تأمين استمرار مرور عدد كبير من السفن من القناة فيما بعد . وخرج محمود يونس ، مدير إدارة القناة ، بأن مائتين وثلاثة وعشرين مرشداً كانوا يعملون لحساب الادارة فى منتصف شهر أكتوبر ١٩٥٦ ، ومن هذا العدد كان مائة وسبعون مرشداً ، منهم سبع وتسعون مرشداً مصرياً يقومون بإرشاد السفن ، بينما كان الباقون فعلاً لا يزالون فى المرحلة الأخيرة للتدريب

وفى الوقت ذاته ، طالب الشعب المصرى بوضع حد للأعمال التى تهدف إلى الاغتصاب الحقيقى لقناة السويس ، وإلى التضاء على استقلال مصر ، وعى أعمالها فيها تهديد جدى للسلام والأمن الدوليين وفى ١٧ سبتمبر ١٩٥٦ ، وجهت الحكومة المصرية مذكرة إلى مجلس الأمن احتجت فيها على مثل هذه الأعمال التى قام بها الغرب ، وكررت الحكومة المصرية فى مذكرتها اقتراحاتها السابقة الخاصة بمشكلة السويس ، ثم وصفت الحالة

الناشئة حول قناة السويس ، وأشارت إلى أنه من الضروري لمجلس الأمن أن « يراقب بتيقظ هذه الحالة » .

ولاقى موقف مصر السلمى كل تأييد من جميع الدول الديموقراطية وفى ١٧ سبتمبر ١٩٥٦ أبلغت واحدة وعشرون دولة الحكومة ، المصرية قبولها رسميا اقتراح مصر بتأليف هيئة تمثيلية لتسوية مشكلة قناة السويس واستقبلت الحكومة السوفيتية اقتراح مصر استقبالا طيبا ؛ وأعلنت حكومة الاتحاد السوفيتى ، فى يوم ١٤ سبتمبر ١٩٥٦ ، فى ردھا على مذكرة الحكومة المصرية ، عن موافقتها على الاشتراك فى المؤتمر التمثيلى الذى اقترحه مصر ، لتعديل اتفاقية القسطنطينية المبرمة سنة ١٨٨٨ ، ولدراسة مسألة عقد اتفاق لتوكيد وضمان حرية الملاحة فى قناة السويس وأحل الاتحاد السوفيتى على تسوية مشكلة القناة تسوية سلمية . وقد أدلت الحكومة السوفيتية بتصريح فى هذا الشأن يوم ١٦ سبتمبر ١٩٥٦ وفتت حكومة الاتحاد السوفيتى فى تصريحها هذا النظر إلى الحالة الخطرة الناشئة عن موقف الدول الغربية من مسألة قناة السويس ، إذ أنها تهدف إلى حل المشكلة عن طريق استخدام القوة . وأكد التصريح اقتناع الحكومة السوفيتية اقناعا عميقا بأن مشكلة القناة يمكن حلها بالطرق السلمية وحدها ، وخاصة بعقد مؤتمر دولى تشترك فيه مصر وجميع الدول التى تستخدم القناة .

وتشهد ردود ن . ؟ بولجانين ، رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى على الأسئلة التى وجهها إليه كنجزبرى سميث ، نائب رئيس وكالة الأنباء الأمريكية « اترناشيونال نيوز سرفيس » ومديرها العام على المجهودات التى بذلها الاتحاد السوفيتى فى سبيل الوصول إلى حل عادل لمشكلة السويس إذ أشار فى ردوده إلى أن الاتحاد السوفيتى على استعداد للاشتراك فى اجتماع لرؤساء حكومات مصر والهند وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة

الأمريكية . وأعرب ن . ا . بولجانين عن رأى الحكومة السوفيتية فقال إن مثل هذا المؤتمر قد يهتدى إلى حل ساسى لمشكلة قناة السويس . يضمن ، من ناحية ، احترام سيادة مصر ويكفل ، من ناحية أخرى ، حرية الملاحة . وأبرز بولجانين فى ردوده أن النتيجة النهائية والاتفاق الاجماعى يجب أن يترك لمؤتمر دولى كبير يعقد لدراسة مسألة القناة ونشترك فيه جميع الدول المعنية بالأمر . وأعربت الحكومة السوفيتية كذلك عن استعدادها لإرسال اقتراحها إلى هيئة الأمم المتحدة للتصديق عليه .

وعبر الشعب السوفييتى كله عن تجاوبه الحار مع مصر ، وفى ١٩ سبتمبر ١٩٥٦ ، ضمت اللجنة المركزية لاتحاد نقابات العمال السوفيتية احتجاجاتها إلى احتجاجات عمال العالم ضد محاولات الاستعماريين لبلسط سيطرتهم على قناة السويس ، وباسم خمسة وأربعين مليون عضو من أعضاء اتحاد النقابات السوفيتية ، أعلنت اللجنة المركزية لهذا الاتحاد عن تضامنها وتأييدها لعمال مصر فى نضالهم العادل فى سبيل الاستقلال الوطنى . وأكدت اللجنة المركزية لاتحاد النقابات السوفيتية . فى تصريحها أن عمال العالم وتنظيماتهم العالمية ستعارض الاستعماريين بحزم ، وستؤيد مصر فى مجهوداتها لإيجاد حل ساسى لمشكلة السويس . وأيدت لجنة نساء الاتحاد السوفيتى ، واللجنة السوفيتية للدفاع عن السلام ولجنة هيئات الشبيبة ، مصر التى كانت ترغب فى الوصول إلى تسوية سلمية لمشكلة قناة السويس .

ومن الأمثلة الملموسة لتضامن الأمة السوفيتية مع المصريين ، تلك المساعدة التى يقدمها لمصر ستة عشر مرشداً سوفيتياً يعملون فى قناة السويس .

وردت الديموقراطيات الشعبية بالقبول على المذكرة المصرية بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٥٦ الخاصة بمشكلة قناة السويس . وأعلنت جمهورية



الصين الشعبية عن تأييدها الكامل للحكومة المصرية ، التي كانت تطلب إجراء محادثات سلمية ، وذلك في المذكرة المؤرخة ١٧ سبتمبر ١٩٥٦ ، واستنكر الشعب الصيني استنكاراً شديداً حازماً محاولات الاستعماريين الذين يريدون إرغام مصر على التخلي عن حقوقها في السيادة ، ويعملون على تحقيق مشروعاتهم لاغتصاب حقوق مصر ، عن طريق التهديد والإرهاب وفي تصريحه يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٥٦ أمام لجنة الجمعية العامة الصينية قال الرفيق شوان لاي ، رئيس وزراء الصين ، باسم الشعب الصيني والحكومة الصينية : « إننا نقف بحزم ضد كل خطة للاستفزاز العسكري تؤدي إلى المساس بسيادة مصر وتعرق الملاحة في القناة » .

وأصدر الاتحاد الدولي للنقابات نداء إلى التنظيمات القومية للعمال ناشدهم فيها العمل في سبيل تنظيم تأييد إيجابي للعمال المصريين في نضالهم من أجل حقوقهم وحرثهم ، وفي سبيل إيجاد حل سلمي لمشكلة قناة السويس .

وتشارك عدة دول أخرى الحكومة المصرية في موقفها السلمي ، فقد أعلنت الحكومة الهندية برئاسة نهرو ، رسمياً عن تضامنها مع مصر . وفي يوم ١٣ سبتمبر ١٩٥٦ طلب نهرو من ممثلي إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا . أن يعدلوا عن مشروعاتهم الخاص بإنشاء هيئة دولية للمنفعين بالقناة . وتضامنت الأمة الهندية مع الأمة المصرية وصرح باخش غلام محمد ، رئيس وزراء كشمير ، بقوله : « إن كل الأمة الهندية تؤيد مصر » .

وأعربت حكومات أندونيسيا وكوريا . وشاه إيران ، ورؤساء وزراء بورما ونيبال ، ومملك أفغانستان محمد زاهر شاه ، عن التأييد الكامل لمصر .

وأعرب الشعب الإيطالي عن تأييده لمصر ، وعن تأييده لضرورة صيانة السلام في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، واتسعت الحركة في سبيل

صيانة السلم العالمى فى تلك البلاد يوما بعد يوم .  
 وفى البلاد الغربية — الولايات المتحدة و انجلترا وفرنسا — استنكر  
 جزء من الشعب استخدام القوة ضد مصر أيضا . وقالت جريدة مانشستر  
 جارديان « الانجليزية » إن رأى العام البريطانى قد تغير « أى أن الأمة  
 بدأت تفهم المصير الذى ستؤدى بها إليه « سياسة الحكومة الانجليزية فى  
 مسألة قناة السويس » . ومضت الجريدة تقول : « إننا نعلم فى الوقت  
 الحاضر إنه سيكون من الغباوة المطلقة أن نشن حربا تؤدى بنا إلى فقدان  
 صداقة دول الكومنولث ، وتثير ضدنا عداوة جميع البلاد الآسيوية : »  
 ونوهت الصحف البريطانية ، فى دراستها الموقف من الناحية الواقعية ؛  
 إلى خطأ اتباع سياسة التهديدات العسكرية . وأعلنت جريدة ، صنداي  
 بكتوريال « ، وهى تستنكر الاستعدادات العسكرية أنها ضد « أولئك  
 الذين يلوحون بالسلاح » ، وذكرت أمثال هؤلاء بأن أغلبية الأمم تستنكر  
 « سياسة القوة » ؛ ومن بين تلك الأمم أغلبية دول الكومنولث .  
 وكتبت تقول : « لقد أعلنت الهند وسيلان وقوفهما موقفاً حازماً ضد  
 استخدام القوة ؛ بينما أعرب كندا و استراليا و نيوزيلندا عن شكوكهم  
 تجاه جدوى استخدام مثل تلك الوسيلة . » ووصفت صحيفة « رينولدز »  
 أولئك الذين يحاولون « اصطناع مبرر لاستخدام القوة » ، على حد  
 تعبيرها بأنهم « مجانين » وكتبت صحيفة « مانشستر جارديان » تقول  
 لا يمكن على الإطلاق فرض فكرة الاشراف الدولى على مصر بالتهديد  
 بالقوة . « وأعلنت صحيفة « سبكتاتور » الأسبوعية تأييدها لتسوية المسألة  
 بالوسائل السلمية ، وقالت : « إن رأى العام العالمى سينظر بلا أدنى شك  
 إلى أى تهديد بالقوة على أنه عملى استفزازى من جانب الدول الغربية .  
 واستنكر عدد من أعضاء حزب العمال البريطانى ، تلك الأعمال  
 الخطيرة ، وكان من بينهم چون ستراتنى . وزير الحرية السابق ،

وكوفى زيليا كوس وفنز بروكواى ووليم وزى وهارولد ديفز وچورج براون وريتشارد كروسمان وغيرهم من نواب حزب العمال . ولقد تم إعلان سياسة حزب العمال ضد محاربة مضر رسميا فى الاجتماع غير العادى الذى عتمده البرلمان الانجليزى لبحث مسألة قناة السويس .

ولقد طالب الشعب الانجليزى — فى إصرار — بتسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية ، وعقد فى ١٦ سبتمبر اجتماع ، شعاره « لا حرب بسبب قناة السويس » اشترك فيه ألوف من الانجليز فى لندن وفى خلال ذلك الاجتماع ، تم الاحتجاج بشدة على المشاريع العسكرية التى يهددها الاستعماريون .

ولم تكن الصحافة البورجوازية فى الولايات المتحدة ، مجمعة هى أيضا على تأييد الأعمال الاستنزائية التى يقوم بها الاحتكاريون ، فقد لاحظ أوروئالد . المعقب السياسى لصحيفة « ديلى نيوز » التى تصدر فى نيويورك أن سياسة دلاس تمثل خطرا على الأمن العالمى ، وتشير روح عداء « ملايين المسلمين » ضد الولايات المتحدة الأمريكية . وكتبت صحيفه « نيويورك هيرالد تريبون » أيضا تقول أنه يجب ألا يصدر أى قرار خاص بالقناة إلا بعد موافقة مصر .

وأعلن جزء من الشعب الفرنسى كذلك معارضته لاستخدام القوة تجاه مصر ؛ وأذاع بيان يطالب فيه بتسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية .

ويؤخذ مما نشرته صحيفة « ليموند الفرنسية » ، أن بعض أعضاء اللجنه السياسيه للحزب الاشتراكى الفرنسى قد استنكروا موقف أعضاء معينين فى الحزب ؛ وكتبت الصحيفه نقول : « وجه أعضاء تلك المجموعه رسالة إلى مكتب الدوليه الاشتراكيه ، اتفقوا فيها سياسه موليه وبينو » . وفى الوقت ذاته تمت جبهة البلاد العربيه واتسعت ، وأيدت مصر

تأييداً كاملاً لأنها رأت في النضال الذي تقوم به مصر نضالاً في سبيل حرية وسلام جميع الشعوب العربية ، وطالبت البلاد العربية بحل مسألة قناة السويس حلاً سليماً واحتجت على الاستعدادات العسكرية التي قامت بها الدول الغربية في المنطقة الوسطى في البحر الأبيض المتوسط . وجاءت تلك الاحتجاجات من جانب سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن والأردن وتونس ومن الدول العربية الأخرى . وأكد العرب في إصرار وعزم . أنهم سيعتبرون أى عدوان يقع على مصر عدواناً على جميع البلاد العربية ، وجاء هذا التأكيد — بصفة خاصة — في قرار اتخذته اللجنة السياسية للجامعة العربية في يوم ١٨ سبتمبر ١٩٥٦ ، وقد استنكرت اللجنة السياسية في ذلك القرار سياسة التهديد كما استنكرت أيضاً سياسة الضغط السياسى والاقتصادى والعسكرى ، التي اتبعتها الدول الغربية في سبيل تنفيذ خططها التي تثير قلق جميع الدول العربية ، بالتأييد لمصر ونوه القرار بتأييد البلاد العربية الكامل لمصر في اقتراحاتها الخاصة بتسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية .

وأمام الاحتجاجات الشديدة التي أعلنتها الإنسانية كلها ضد تسوية مسألة قناة السويس ، اضطرت الدول الغربية إلى أن تتوقف عن تهديدها العسكرية ، كما قام مؤتمر لندن الانقشاعى بدور كبير في وقف خطط الدول الغربية الثلاث العسكرية وذلك لأن الدول المشتركة في ذلك المؤتمر فضلت إحالة مسألة قناة السويس فوراً على هيئة الأمم المتحدة ، واتخذ أعضاء المؤتمر موقفاً غير حماسى تجاه الولايات المتحدة الأمريكية التي أرادت أن تقوم بدور يشبه دور الفرس في لعبة الشطرنج ، وذلك على حساب شركائها إذ اقترح دالاس ، المندوب الأمريكى أثناء المؤتمر ، اتخاذ تدابير اقتصادية جماعية ضد مصر على شكل مقاطعة المرور بقناة السويس وتفضيل الطريق حول أفريقيا على الطريق عبر القناة . « ويفضح » مشروع « دالاس هذا

اللعبة الأمريكية التي تهدف إلى الصيد في « المياه المضطربة » بالقناة .  
 ففي حالة ما إذا استخدم الشركاء الأمريكيون طريق رأس الرجاء  
 الصالح ، فإن المكاسب الاقتصادية التي يسفر عنها هذا الحدث الأمريكي  
 السياسي ستصبح مكاسب هامة ، إذ يقتضي استخدام الطريق البحري  
 « الجديد » تشغيل ناقلات بتروك كبيرة لا تقل حمولة كل منها عن ٤٠٠٠٠  
 طن ، وهي ناقلات لا يمكن بناؤها إلا بعد وقت طويل ، ونتيجة لذلك ،  
 فإن واردات أوروبا من البترول — كما قالت الصحيفة الأسبوعية الباريسية  
 « جوردي فرانس » — ينخفض بمقدار النصف ، وفي ذلك فائدة كبيرة  
 للاحتكارات الأمريكية التي تستطيع زيادة صادرات بتروكها إلى أوروبا ،  
 وتزيد بذلك من تبعية البلاد الأوروبية الاقتصادية والسياسية للولايات  
 المتحدة .

وذلك كان السبب الحقيقي للمشروع الثالث من « مشروعات دالاس »  
 وهو مشروع مقاطعة قناة السويس ، ولكي يعزز دالاس « حجته » ،  
 قدم إلى شركائه شيكا بمبلغ ٥٠ مليون دولار ، وهو مبلغ يكفي لتعويضهم  
 عن « الخسائر » التي تحدث بسبب زيادة تكاليف نقل البترول إلى أوروبا  
 غير أن كل هذا كله لم يسفر عن أية نتائج أيضا .

ومما له دلالة في هذا الصدد ، أن « المشروع » الأمريكي لم يتلأأ  
 تأييد ولا حتى تأييد إنجلترا . لقد فهمت الدوائر التجارية في إنجلترا أن  
 المشروع لا يهدف إلى معاقبة مصر خسر ، وإنما يهدف كذلك إلى تعزيز  
 مراكز احتكارات البترول الأمريكية على حساب شركائها الإنجليز ، وقد  
 نوهت صحيفة « فايننشال تايمز » التي تصدر في لندن — في هذا الصدد —  
 بأن الولايات المتحدة لن تفقد الكثير بسبب مقاطعة قناة السويس ؛ بينما  
 ستصاب البلاد الأخرى ، وخاصة إنجلترا ، بخسائر كبيرة ، وكتبت صحيفة  
 « ديلي اسكيتش » بصراحة تقول إن دالاس يحاول الاستفادة من « أزمة

قناة السويس » ويحاول أن يخلق إنجلترا اقتصاديا .

وفي الوقت ذاته ، أصربت الدول الأخرى المشتركة في المؤتمر عن موقفها تجاه الاقتراحات الأمريكية ، في تلك المرة ، لا بمجرد رفض القيام بدور مقلب القط للولايات المتحدة الأمريكية ، وإنما بإعلانها كذلك وبصفة خاصة ؛ عن رغبتها في تسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية ، ولم تستطع الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا أن تجعل دول المؤتمر تقبل مشروع إنشاء « هيئة مستخدمى قناة السويس » إلا بعد أن قبلت تلك الشروط وأمام ذلك الجو غير الودى تجاه « استخدام العنف » لجأت الدول الغربية الثلاث إلى المناورة ؛ واتجهت تلك المناورة إلى وضع بطاقة تحمل تعبير « السلام » على مشروعاتهم ، والمضى في تنفيذ تلك المشروعات تحت ستار « الحل السامى ومن الناحية العملية سارت المناورات على الوجه التالى : ما كاد مؤتمر لندن ينتهى حتى قدمت إنجلترا وفرنسا شكوى ضد مصر إلى مجلس الأمن . وبررتا تلك الشكوى بدعوى « ضرورة حمايتهما من المصريين » الذين وصفته الشكوى بصفة « المتعدين » المزعومة ١ وطالبت الدولتان بفرض إشراف دولى على قناة السويس .

وانعقد فى لندن من أول أكتوبر إلى ٥ أكتوبر مؤتمر لوزراء خارجية الدول التى قبلت الاشتراك فى « هيئة مستخدمى القناة » ، وكشف ذلك المؤتمر عن الاختلافات الموجودة بين تلك المجموعة من الدول ، فقد أعلن ممثلو باكستان واليابان وأثيوبيا أن بلادهم ممتنعة عن الاشتراك فى تلك الهيئة ، وتقدمت الزويج والنامرك وهولندا بالعديد من المقترحات ، كما أثبتت عدة مشا كل ذلك المؤتمر ولم ينته المؤتمر فيها إلى حل ، ولم يستطع المؤتمر كذلك أن يعالج مسألة تمويل الهيئة ، ولم يستطع المشتركون فى ذلك المؤتمر أن يختاروا رئيسا لتلك الهيئة ، كما لم يستطيعوا اختيار العضو السابع فى المجلس التنفيذى للهيئة ، وهو المجلس الذى تألف من

مندوبين عن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطالية وإيران والزوج ، وكذلك لم يستطيعوا الاتفاق على مقرالهيئة . وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد سارع أصحاب فكرة تلك الهيئة إلى إعلان تكوينها ، وحددوا موعد الاجتماع الأول للمجلس التنفيذي .

غير أنه سرعان مازال قناع « السلام » انزائف أكثر من قبل عندما زادت أعمال حشد الجيوش الإنجليزية - الفرنسية في المراكز الأمامية المؤدية إلى مصر . وما بدأت اجتماعات مجلس الأمن حتى بدأت الأنباء تظهر في الصحف عن وجود تجمعات كبيرة من القوات العسكرية التابعة للدول العربية في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ، وبلغت تلك الاحتشادات : ١٨ سرباً من الطائرات تضم مايزيد على ألف طائرة ، ٢٨٥ سفينة حربية ، وفرقة دبابات ، وخمسة لواءات ، و ١٣ فصيلة ، و ٣ مجموعات من المدفعية الثقيلة وغيرها من القوات العسكرية المزودة بأحدث الأسلحة . ولذلك ، فلم يكن من المستغرب أن وصفت بعض الصحف الاحتكارية التجاء الدول العربية إلى مجلس الأمن بأنه « جزء من برنامج الضغط على جمال عبدالناصر » ، فقد كانت الدول العربية ترمي من ورأها « شكواها إلى مجلس الأمن إلى الحصول على تفويض بالتدخل في شئون الجمهورية المصرية الداخلية .

وبدأ مجلس الأمن في مناقشة مسألة قناة السويس في ٥ أكتوبر ، وظهر من تكوين مجلس الأمن عندئذ مدى الأهمية الفريدة لتلك المسألة . فأول مرة خلال السنوات العشر الأخيرة من تاريخ مجلس الأمن ، حضر جلسات المجلس سبعة وزراء خارجية بالإضافة إلى المندوبين الدائمين ، وأسبغ حضور الدكتور محمود فوزى ؛ وزير خارجية مصر . مناقشات مجلس الأمن أهمية خاصة على تلك المناقشات . ومن ثمت ، فقد أمكن لأول مرة منذ تأميم شركة قناة السويس - إجراء مناقشات بحضور مصر واتخاذ قرارات .

وبرهنت أعمال مجلس الأمن . مرة أخرى . على نوايا مصر الطيبة ورغبتها الصادقة في تسوية الموقف الناشئ حول قناة السويس تسوية سلمية . ذلك الموقف الذى أثار قلق الانسانية جمعاء .

وقد ألقى الدكتور فوزى ممثل مصر ؛ خطابا واضح الأسلوب محدد المعانى . عرض فيه تحليلا تفصيليا للإجراء الذى اتخذته الحكومة المصرية ذات السيادة في تأميم شركة مساهمة خاضعة للقوانين المصرية . وأوضح وزير الخارجية المصرية أيضا عدم الدقة في استخدام تعبير « تدويل » قناة السويس . والذى يقال أنه وارد في اتفاقية ١٨٨٨ ورفض الاتهامات الموجهة إلى مصر والتي تزعم أن مصر قد خرقت تلك الاتفاقية .

واقترح الدكتور فوزى — باسم حكومته — تسوية المسألة عن طريق المفاوضات السلمية التى تبرى بوساطة هيئة خاصة . ويؤخذ من وجهة نظر الحكومة المصرية التى أعربت عنها في مجلس الأمن أن على المجلس أن يقوم بتحقيق المسائل الهامة التالية :

١ — إيجاد نظام للتعاون بين الهيئة المصرية القائمة على إدارة القناة ومستخدمى القناة . على أن يكفل ذلك النظام سيادة مصر وحقوقها الكاملة ومصالح مستخدمي القناة .

٢ — إيجاد نظام لتحديد رسوم المرور والضرائب المستحقة على المرور في القناة بحيث يضمن لجميع مستخدمي القناة معاملة متساوية وغير استغلالية .

٣ — تحديد نسبة من أرباح القناة لانفاقها على أعمال التحسين . وفى الوقت ذاته . أصر اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية — بدوره — على تسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية . ووصف ديمتري ت . شيلوف . وزير خارجية الاتحاد السوفيتى والمندوب السوفيتى في مجلس الأمن ، التهديدات الاقتصادية والعسكرية التى تشنها الدول الغربية



خند مصر بأنها لا تتفق مع نصوص وأهداف ميثاق الأمم المتحدة ، ولا تتفق مع مصلحة السلم والأمن الدوليين : وأوضح المندوب السوفيتي أن تلك السياسة الديكتاتورية والقائمة على الانذرات النهائية هي التي تعرق تسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية . وهي التي تقيم الصعوبات في طريق تأمين حرية الملاحة في القناة . تلك الحرية التي تهم الأغلبية العظمى من الدول . وحدد مندوب الاتحاد السوفيتي موقف الحكومة السوفيتية بأنه قائم على أساس ضرورة تحقيق التعاون الذي يكفل تحقيق مصالح مصر ومصالح البلاد التي تستخدم القناة . وقال إن اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية يرى تكوين لجنة ذات سلطات داخل نطاق مجلس الأمن حتى يمكن الدخول في المناوصات المنشودة . واقترح أن تتألف تلك اللجنة من مصر وإنجلترا والهند وفرنسا واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية والولايات المتحدة الأمريكية مثلاً . ولكنه لم يحدد عدد أعضاء مثل تلك اللجنة وترك الأمر ليناقشه الأطراف المعنيون . واقترح أن تلتزم اللجنة بتقديم تقرير إلى مجلس الأمن ، بعد مهلة يجري تحديدها عن المبادئ المتفق عليها لتسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية ولا برام اتفاق .

ومن الممكن كذلك تكليف تلك اللجنة بوضع مشروع اتفاقية جديدة تكفل ضمان حرية الملاحة في قناة السويس وتخل محل اتفاقية ١٨٨٨ : ويؤخذ من وجهة نظر الحكومة السوفيتية أن مبادئ مثل تلك الاتفاقية يجب أن تكون المبادئ التالية :

١ — حرية مرور جميع السفن التجارية والحرية في قناة السويس لجميع الدول دون تمييز بينها في حقوق المرور أو الرسوم أو تسهيلات الملاحة :

٢ — إلزام مصر باعتبارها دولة ذات سيادة وباعتبارها القائمة على إدارة القناة بضمن الحرية الكاملة للملاحة وبمحماية القناة ومنشأتها

وبصيانة وتحسين القناة بصفة مستمرة وبإبلاغ الأمم المتحدة — بصنة دورية بالاعمال التي تجرى في القناة .

٣ — إلزام جميع الموقعين على الاتفاقية ، بضمان سلامة وأمن وحياد قناة السويس .

٤ — ضمان قيام أنظمة للتعاون بين مصر والبلدان التي تستخدم القناة ومن ثمت نرى أن اقتراحات مصر واقتراحات اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ذات طابع انشائي ، وهي تبرهن على الامكانية الكاملة للوصول إلى تسوية سلمية وعلى أساس المساواة لمسألة قناة السويس وقد تبعت الانسانية كلها اجتماعات مجلس الأمن ، وطالبت باستمرار بتسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية ؛ فلم يستطيع مندوبو إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة أن يستمروا في تجاهل تلك المطالب ، وفهموا أن عليهم أن يحسبوا حساب الرأي العام العالمى وعلى أثر تبادل وجهات النظر بين وزراء خارجية مصر وإنجلترا وفرنسا باشتراك همرشالد السكرتير العام للأمم المتحدة ، أمكن توحيد وجهات النظر حول المبادئ الستة التالية :

١ — المرور في القناة حر ومفتوح بدون تمييز ظاهر أو خفى سواء أكان التمييز سياسيا أو تقنيا

٢ — الاعتراف بسيادة مصر

٣ — استغلال القناة غير مرتبط بسياسة أى دولة أو مجموعة

من الدول :

٤ — يتحدد نظام دفع رسوم المرور باتفاق بين مصر والدول التي تستخدم القناة

٥ — يجب اعتماد نسبة مناسبة من مخصصات رسوم القناة لانفاقها على أعمال التحسين

٦ — الالتجاء إلى التحكيم لتسوية أى نزاع بين شركة القناة والحكومة المصرية بشأن المسائل المتعلقة

وعلى أساس تلك المبادئ، العامة أصبح من الضروري تحديد الوسائل المعنية والجراءات التي تكفل تسوية مسألة القناة

وقد وافق مجلس الأمن بالاجماع على تلك « المبادئ الستة » التي كونت الجزء الأول من مشروع قرار جديد قدمته إنجلترا وفرنسا إن النتيجة الايجابية التي أسفرت عنها مناقشات مجلس الأمن ، لها أهمية كبيرة : فهي قد أثبتت - أولاً - أن المفاوضات السلمية هي خير السبل لتسوية الخلافات ، وهي قد مهدت من الناحية الثانية ، الطريق للوصول إلى تسوية سلمية نهائية لمسألة قناة السويس

ومع هذا ، فقد برهنت مناقشات مجلس الأمن كذلك على أن إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة . التي قبلت تلك التسوية تحت الضغط العام . مستمرة في رغبتها في فرض المشروعات الاستعمارية على مصر . بغية إقامة إشراف أجنبي على قناة السويس : وكان الجزء الثانى من مشروع القرار الانجليزى - الفرنسى الذى ناقشه مجلس الأمن ورفضه الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا ، الدليل على ذلك . لقد كانت الفكرة الرئيسية في ذلك الجزء هي قبول « وجهة نظر الدول الثماني عشر » ، التي أعلنها مؤتمر لندن ورفضتها مصر ، باعتبارها لا تتفق وسيادتها ، أساساً للمفاوضات . كما اشترطت الدول العربية تعاون مصر مع هيئة مستخدمى القناة ( قبل ابرام الاتفاقية النهائية الخاصة بوضع قناة السويس ) ومعنى هذا أن ذلك الجزء من مشروع القرار حاول أن يفرض المشروعات الاستعمارية القديعة تحت اسم جديد ، وحاولت الدول العربية عن طريقه أن تفرض على مصر وجهة النظر تلك لا باسم مجموعة من الدول لا تمثل إلا جزءا من مستخدمي القناة ، وإنما تريد أن تفرضها على مصر باسم

الأمم المتحدة ، وإن محاولات الدوائر الحاكمة في فرنسا وإنجلترا - تؤيدها الولايات المتحدة - لتوجيه إنذاراتها إلى مصر باسم مجلس الأمن ، تفضح أن تلك الدوائر لم تر في المفاوضات إلا خطوة تكتيكية في سبيل تحقيق مشروعاتها العدوانية التي أعدتها بعناية ضد مصر . وإن الأحداث التي تلت ذلك قد أثبتت هذه الحقيقة .

ففي ليلة ٢٩-٣٠ أكتوبر ، بدأت إنجلترا وفرنسا - وهاتستخدام إسرائيل - تدخلا عسكريا ضد مصر ، إذ عبرت القوات الاسرائيلية الحدود المصرية ، وبدأت في القيام بعمليات عسكرية وتقدمت في شبه جزيرة سيناء نحو قناة السويس ، وفي اللحظة نفسها تقريبا وجهت إنجلترا وفرنسا إنذارا تطالب فيه مصر بأن تتخلى للاستعماريين عن مراكز رئيسية في الأراضي المصرية - في السويس وبورسعيد والاسماعيلية . وزعمت الدولتان الاستعماريتان أن غرضهما من ذلك الطلب هو حماية قناة السويس من غزو القوات الاسرائيلية ، ووقف العمليات العسكرية بين مصر وإسرائيل والواقع أن تلك المزاعم لم تكن سوى تسكأة تستند اليه الدولتان لادخال جيوشهما إلى الأراضي المصرية ، وهو ما حدث بالفعل عندما رفضت مصر ذلك الانذار الاستعماري الذي يخرق حقوقها القانونية . وأخذت الجيوش الانجليزية والفرنسية ، البرية والجوية والبحرية ، تقتل شعب مصر المسالم ، وتنفذ المدن والقرى بالقنابل ، وأدت الأعمال العدوانية للمتدخلين الانجليز والفرنسيين إلى عرقلة الملاحة في قناة السويس ، ولم يخف الاستعماريون أن اعتداءهم على مصر كان بناء على خطة موضوعة منذ وقت بعيد ، ولم تكن رغباتهم قاصرة على استغلال القناة ، وإنما رسموا لأنفسهم خطة احتلال جميع الأراضي المصرية ، والقضاء على استقلال بلاد الشرقين الأدنى والأوسط ، وإقامة صرح السيطرة الاستعمارية المقيتة في تلك المنطقة .

ولقد تحدث الدوائر الاستعمارية في إنجلترا وفرنسا واسرائيل ،  
لا الشعب المصري فحسب ، بل وتحدث جميع البلاد العربية التي ناضلت  
دائماً ضد السيطرة الاستعمارية ، كما كان الاستعماريون يرمون إلى تخويف  
البلاد المحبة للحرية وإجبارها بالحديد والنار على التخلي عن نضالها المقدس  
في سبيل السلام والاستقلال .

وفي سبيل تحقيق مشروعاتهم للسيطرة بأي وسيلة ، تجاهل المعتدون  
- الانجليز والفرنسيون قرارات الأمم المتحدة ، وأنزلت إنجلترا وفرنسا  
الشلل بأعمال مجلس الأمن عندما منعتاه من اتخاذ التدابير الضرورية  
لوقف العدوان على مصر ، كمارفضت الدولتان تنفيذ قرارات الجمعية العامة  
للأمم المتحدة الصادرة في ٢ نوفمبر والتي أوصت بوقف إطلاق النار فوراً  
وسحب جميع القوات إلى ما وراء خطوط الهدنة . ولم ترفض الدولتان  
تلك القرارات فحسب ، بل وإنها سارعت بزيادة عملياتها العسكرية ضد  
مصر ، بحيث أصبح الموقف في الشرقين الأدنى والأوسط ينذر بأخطار  
شديدة تولدت عنها تعقيدات عميقة في الموقف الدولي . وعندما أصبح من  
الواضح أن الأمم المتحدة لن تستطيع تحقيق وقف الاعتداء الانجليزي —  
الفرنسي — الاسرائيلي ضد مصر ، بدأت الأمم تعتقد أن تلك الهيئة غير  
قادرة على الدفاع عن السلام والأمن العالميين .

ولقد بادرت الإنسانية جمعاء بدفع الاستعماريين الانجليز والفرنسيين  
والاسرائيليين ، الذين شنوا على مصر حرباً استعمارية للنهب والسلب ،  
وطالبت جميع أمم العالم بشدة بوقف الاعتداء الانجليزي — الفرنسي —  
الاسرائيلي على مصر ، وسحب جيوش المعتدين من الأراضي المصرية .  
وكان ذلك المطلب هو أيضاً طالب جميع الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية  
واقترح اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، في مجلس الأمن  
وفي الاجتماع غير العادي للجمعية العامة للأمم المتحدة ، على قرار وقف

العمليات الحربية ضد مصر وسحب جميع القوات العسكرية من الأراضي المصرية .

وفي سبيل صيانة مصلحة المحافظة على السلام ، بعث ن . ا . بولجانين ، رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي ، في ٥ نوفمبر ١٩٥٦ ، برسالة خاصة إلى رئيس الولايات المتحدة أيزنهاور وبعث برسائل خاصة إلى رئيس وزراء بريطانيا أنطوني إيدن ، ورئيس وزراء فرنسا جى مولييه ، ورئيس وزراء إسرائيل بن جوريون ، وقالت الحكومة السوفيتية في تلك الرسائل أنها قد بعثت برسالة إلى الأمم المتحدة تقترح فيها استخدام قواتها البحرية والجوية ، بالاشتراك مع دول أخرى من أعضاء الأمم المتحدة ، لوقف الاعتداء على مصر ، لأن ذلك الاعتداء يهدد العالم بخطر حرب عالمية ثالثة .

وقد رحبت جميع أمم العالم بذلك الموقف السامى من جانب اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، وهو موقف تأييد الشعب المصرى المسلم في الدفاع عن حريته واستقلاله .

وقبلت حكومات إنجلترا وفرنسا واسرائيل وقف إطلاق النار . وهكذا ، خرجت مصر منتصرة في ذلك النضال المسلح ضد المعتدين الانجليز والفرنسيين والاسرائيليين ، وأصيب المعتدون بهزيمة منكرة في محاولاتهم القضاء السريع على الجيش المصرى واستعباد الشعب المصرى . إن لفشل العدوان الانجليزى — الفرنسى — الاسرائيلى على مصر ، ولسياسة اتحاد الجمهوريات السوفيتية تجاه مصر ، أهمية عظمى ، لبالنسبة للبلاد العربية التى تدافع عن استقلالها الوطنى بحسب ، وإنما بالنسبة أيضا لجميع شعوب الشرق .

فبدلا من إضعاف الحكومة المصرية الوطنية والقضاء عليها ، أسفر فشل العدوان وسياسة الاتحاد السوفيتى عن تعزيز قوة الشعب المصرى

والثقافة حول حكومته ، وقويت وحدة البلاد العربية في نضالها في سبيل  
حقوقها واستقلالها بعد الانتصار على المعتدين ، وأجثت مراكز نفوذ  
المعتدين من جذورها في الشرق ، وزاد نفوذ مصر ومكانتها الدولية .  
لقد برهنت جميع تلك الأحداث والوقائع على أن القوى التي تدافع  
عن حقوق الدور المصرية المشروعة تزداد قوة وإتساعا يوما بعد يوم ،  
وتطالب بتسوية مسألة قناة السويس تسوية سلمية ، وتطالب بحماية السلام  
في جميع أنحاء العالم .  
والقول الفصل لتلك القوى ، وهي التي ستقول الكلمة الأخيرة .

## محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة . . . . . ٣

قناة السويس ممر بحري  
ذو أهمية حيوية . . . . . ٥

تاريخ قناة السويس . . . . . ١٣  
مثل فاضح على تصارع الاستعماريين في سبيل السيطرة  
على المراكز الرئيسية لخطوط الملاحة وتقسيم العالم

الأمة المصرية تسترد . . . . . ٤٣  
حقوقها الكاملة في قناة السويس

الانسانية التقدمية . . . . . ٦٤  
تقف كلها الى جانب مصر



حقوق ترجمة ونشر هذا الكتاب محفوظة  
لمؤسسة نصر الكتب الشعبية السوفيتية  
موسكو: اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية





توزيع  
الدار المصرية للكتب  
٢٤ شارع عبد الحفيظ تروت  
القاهرة

053

ن

